شَرْحُ
كِفَايَةُ المتَعَبِّدِ وَتُحْفَةُ المتَزَهِّدِ

لِلحَافِظِ المنذِرِيِّ

تَأْلِيفُ

عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ عَبْدِ المُحْسِنِ البَدْرِ

طُبع على نفقة بعض المحسنين
جزاهم الله خيراً وأعظم لهم المثوبة

شرح
كفاية المتعبد
وتحفة المتزهد

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

طباعة - نشر - توزيع

المملكة العربية السعودية - المدينة المنورة

شارع الفيصليَّة - خلف الجامعة الإسلاميَّة

00966532627111
00966590960002

daremslm@gmail.com

daremslm



Sutor.center@gmail.com

بحث علمي - طباعة - صفّ - تنسيق - تصميم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
شرح كفاية المتعبد وتحفة المتزهد. / عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد
البدر - المدينة المنورة ، ١٤٤١هـ

ردمك: ٥-٢٥-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨
١- الحديث - جوامع الفنون ٢- الوعظ والإرشاد أ. العنوان
ديوي ٢٣٧,٣ ١٤٤١/٦٣٥٧

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٩٦٤١
ردمك: ٥-٢٥-٨٢٨٧-٦٠٣-٩٧٨

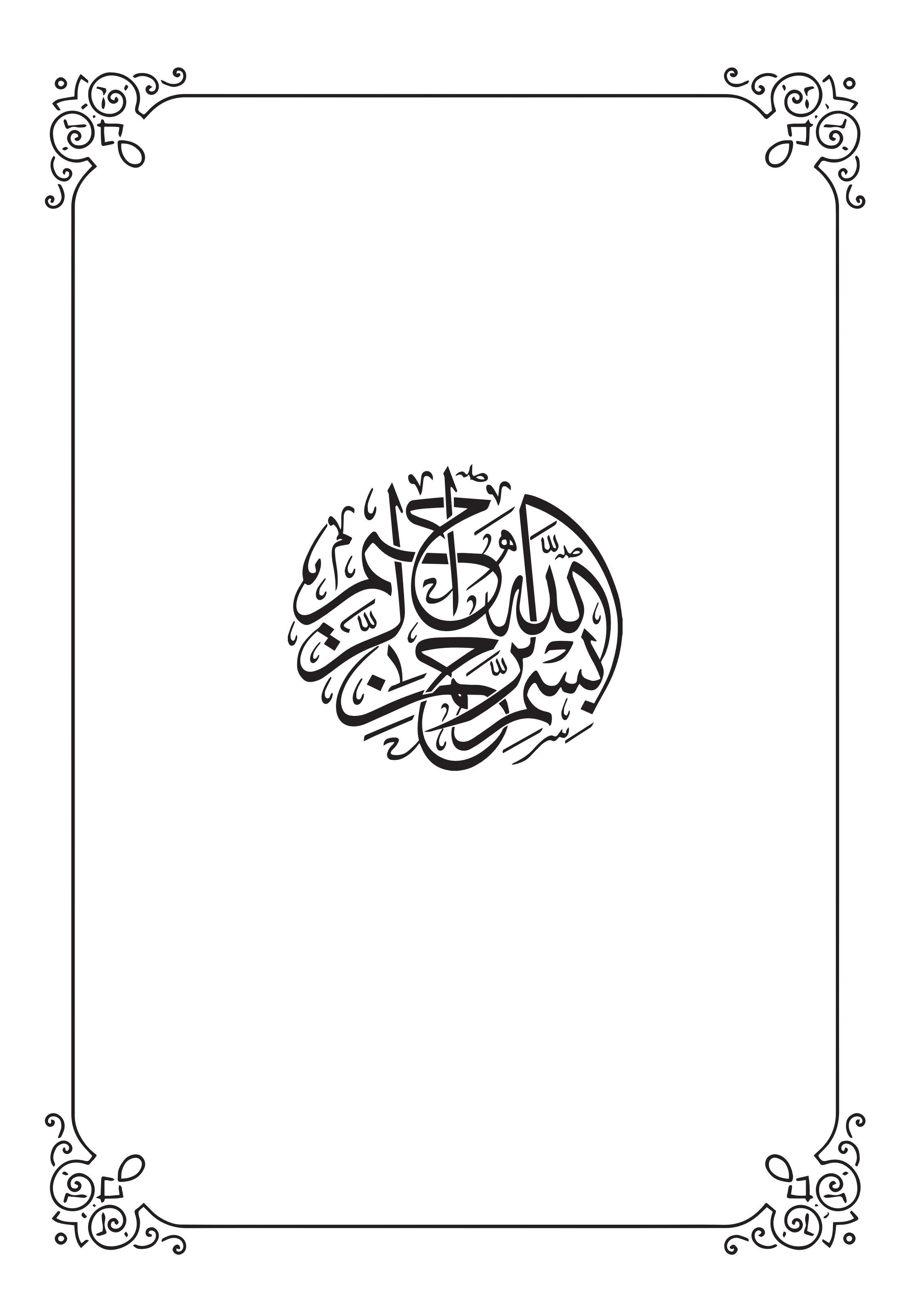
الطبعة الأولى
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

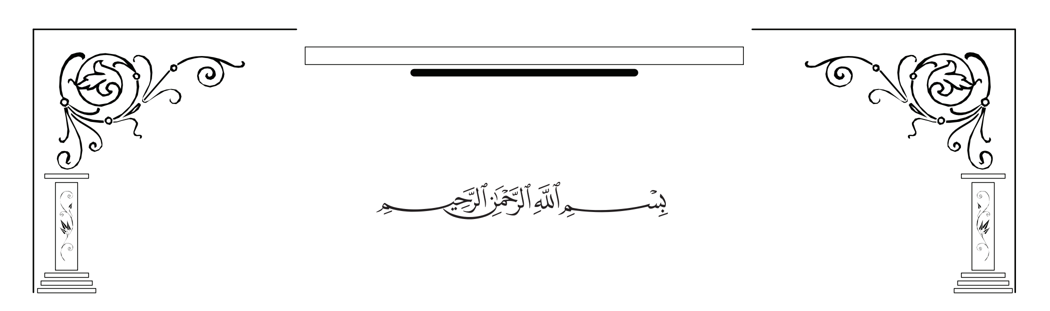
شرح
كفاية المتعبد وتحفة المتزهد

للحافظ المنذري

تأليف
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

مركز سطور للبحث العلمي
دار الإمام مسلم





الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصَحبه أجمعين.

أما بعد:

إنَّ فضائل الأعمال وثواب العبادات وما أعدَّه الله لأهلها من عظيم الأجر وجزيل الثواب وغفران الذنوب؛ باب عظيم من أبواب العلم، جدير بالمسلم أن تعظم عنايته به؛ لما يترتب على العلم به من المعونة للعبد على المحافظة عليها، والاستكثار منها والمواظبة عليها، «ومَن لمْ يَعرِفْ ثوَابَ الأعمَالِ؛ ثقُلَتْ علَيهِ في جمِيعِ الأَحوَالِ»[(١)].

ولقد كتب العلماء في هذا الباب الشريف كتابات كثيرة أُفردت في فضائل الأعمال، إضافة إلى ما اشتملت عليه دواوين السنة من الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من جمعٍ لهذه الفضائل المروية عن الرسول ﷺ.

ومن أحسن المختصرات التي أُلِّفت في هذا الباب هذه الرسالة التي بين أيدينا الموسومة بـ «**كفاية المتعبد وتحفة المتزهد**» للحافظ المحدث الناقد الفقيه أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المُنذِريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ المولود عام (٥٨١ هـ) والمُتوفى عام (٦٥٦هـ)،

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا (١٣٩)، عن أبي عبد الله البراثي.

صاحب الكتاب العظيم الحافل «الترغيب والترهيب»، وهو من أجمع ما أُلف في هذا الباب وأوسعه وأوعبه، وله مصنفات أخرى عظيمة نافعة، من أشهرها: مختصره لصحيح مسلم، ومختصره لسنن أبي داود، والجمع بين الصحيحين، وعمل اليوم والليلة، وغيرها من المصنفات النافعة.

وهذه الرسالة أفردها في بيان فضائل الأعمال، وأتى بها مختصرة، وقسَّمها تقسيمًا جيدًا مفيدًا، ولم يورد فيها إلا ما صح عنه ﷺ، فهي خالية من الأحاديث الضعيفة، فكل ما فيها ثابت عن نبينا ﷺ، ومجموع أحاديث هذه الرسالة تسعة وثمانون حديثًا؛ المتفق عليه منها: اثنان وأربعون حديثًا، وما انفرد به البخاري: ستة أحاديث، وما انفرد به مسلم: خمسة وثلاثون، ومن خارج الصحيحين ستة أحاديث.

وقد أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمته لها إلى سبب تأليفها وهو: أن أخاه أبا أحمد عبد الكريم طلب منه أن يجمع له كتابًا مختصرًا في فضائل الأعمال وثوابها، فأجابه بأن ألَّف هذه الرسالة، وهذا -واللهِ- من جميل الوفاء بين الأخ وأخيه؛ لأنه أحق الناس وأولاهم بأن ينفعه بما آتاه الله من علم وفهم، وكان من أعظمِ وفاءِ أخٍ لأخيه وفاءُ موسى لأخيه هارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ؛ إذ دعا الله أن يجعل له وزيرًا من أهله، وأن يشركه في أمره -أي: النبوة- فاستجاب الله دعوته، فجعل هارون نبيًّا رسولًا.

وهذه الرسالة التي كتبها المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأخيه بارك الله فيها، فعمَّ نفعها، وذاع صيتها، وانتفع بها خلق في قديم الزمان وحديثه، ولا سيما أنها في باب شريف عظيم من أبواب العلم؛ إضافة لمكانة كاتبها ومنزلة مؤلِّفها الحافظ المنذريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد يسر الله لي -بمنه- شرح هذا المتن[١]، واعتمدت فيه على النسخة المطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، وأسأل الله أن يبارك في هذا الشرح وأصله، وأن ينفع به العباد، وأن يجعله باب معونة للمسلمين على حسن الطاعة والاستكثار من الفضائل بمنِّه وكرمه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله؛ نبينا محمد وآله وصحبه[٢].

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

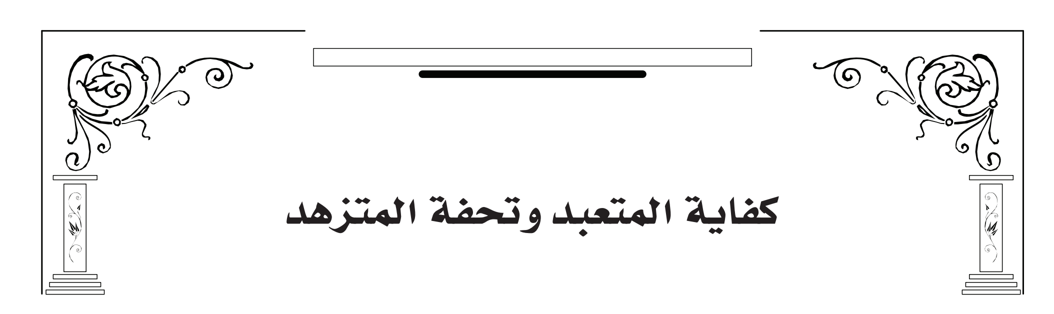
في ٦/ ٤/ ١٤٤١هـ



(١) وأصله دروسٌ ألقيتها في مسجد النبيِّ ﷺ، بلغت أربعة وعشرين مجلسًا، عُقدت في الشهرين الثالث والرابع من عام ستة وثلاثين وأربعمائة وألف للهجرة، وأجريت عليه تعديلات وإضافات وتنقيحات، والله وحده الموفق.

(٢) تم تقسيم الكتاب إلى مقاطع متناسبة الحجم؛ تسهيلاً لمن رغب في قراءته على جماعة المسجد، ومُيِّز كلُّ مقطع بوضع هذه العلامة: ◈ في نهايته.





كفاية المتعبد وتحفة المتزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه الطاهرين.

قال الشيخُ الفقيهُ العالم المُحدِّثُ بقيّةُ الحُفّاظ زَكيّ الدين أبو محمد عبدُ العظيم بنُ عبدِ القويِّ المُنذِري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الحمدُ لله الموفِّق لِصالِح الأعمال، المُحَقِّقِ لراجيه نهايةَ الآمال، أَحمَدُهُ على نِعَمِهِ في الحال والمآل، وَأَشهَدُ أن لا إلٰه إلَّا هو الكبيرُ المُتَعال، وَأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسوُله المُنقِذُ به من الضَّلال، صلى الله عليه وآله وأصحابه وأزواجه الجُدَراء بالإحسان والأفضال دائمة الاتّصال.

وبعد:

فإنَّ أخي أبا أحمد عبد الكريم -صرف الله عنه كُلَّ شيطان رجيم- سألني أن أجمع له كتابًا في ثواب الأعمال وفضائلها محذوف الأسانيدِ؛ لِيسهل عليه حفظه، ويَقرُبَ تناوله، فأجبته إلى ذلك؛ لما له من الحَقِّ اللازم، وليكون باعثًا له -إن شاء الله تعالى- على ملازمة ما نورده فيه، فاستخرت الله -تعالى- وجمعتُ له هذا الكتابَ وسمَّيته «كفاية المتعبد وتحفة المتزهد»، وجعلته أربعة أبواب:

الباب الأول: في ذِكر الصلاة.

الباب الثاني: في الصيام.

الباب الثالث: في الصدقة.

الباب الرابع: في الدعاء والذِّكر.

والله -تعالى- المسؤولُ في أن ينفعنا به وسائر المسلمين، ويجعله خالصًا لوجهه مُقرِّبًا من رحمته بفضله ومَنِّهِ).

• الشرح •

بدأ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحمد والاستهلال الدالِّ على مضمون هذه الرسالة ومقصدها، وهذا يسمى: براعة الاستهلال، فحمِد الله بأنه الموفق لصالح الأعمال، المحقّقُ لراجيهِ نهايةَ الآمال، إذ قيام العبد بالعمل إنما هو بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وبمعونته، والعبد كلَّما عَظُم رجاؤه بالله -جل في علاه- حقَّقَ له نهاية آماله، وبلَّغه ما يرجوه من رضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: **(أَحمَدُهُ على نِعَمِهِ في الحال والمآل)** أي: النعمِ المتقدّمةِ والمتأخرة؛ نعم الدنيا والآخرة.

قَوْلُهُ: **(وَأَشهَدُ أن لا إله إلَّا هو الكبيرُ المُتَعال)** أي: الكبيرُ في ذاته وأسمائه وصفاته، المتعالِ على جميع خلقه ذاتًا وقدرًا وقهرًا.

قَوْلُهُ: **(وَأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسُوله المُنقِذُ به من الضَّلال)** أي: الذي أنقذ الله به الناس من الظلمات إلى النور؛ كما قال الله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

قَوْلُهُ: **(صلى الله عليه وآله وأصحابه وأزواجه الجُدَراء بالإحسان)** أي: الجديرين بالإحسان؛ لعظيم مكانتهم ورفيع منزلتهم، **(والأفضال دائمة الاتّصال)** أي: المناقب العظيمة والذكر الحسن ولسان الصدق في الأمة الدائم غير المنقطع.

قَوْلُهُ: **(فإنَّ أخي أبا أحمد عبد الكريم -صرف الله عنه كُلَّ شيطان رجيم- سألني أن أجمع له كتابًا في ثواب الأعمال وفضائلها محذوف الأسانيدِ)**. هذا سبب تأليفه لهذه الرسالة؛ أن أخاه أبا أحمد عبد الكريم سأله أن يجمع له كتابًا في ثواب الأعمال وفضائلها محذوفة الأسانيد، وعبد الكريم هذا أشار إليه الحافظ عبد العظيم المنذري في كتابه «التكملة لوفيات النقلة»[١]، وكانت وفاته في عام ثلاثة وأربعين وستمائة[٢]، أي: قبل وفاة الحافظ عبد العظيم بثلاثة عشر عامًا.

وقَوْلُهُ: **(ليسهل عليه حفظه ويقرب تناوله)** فيه فائدة هذه المختصرات، وأن فيها تسهيلًا لطالب العلم؛ لحفظ جملة من الأحاديث الصحيحة في فضائل الأعمال وثوابها، وتيسيرًا للعمل بهذه الفضائل ونيل ثوابها العظيم.

قَوْلُهُ: **(فأجبته إلى ذلك؛ لما له من الحق اللازم)** بيان لسبب إجابته لطلبه؛ وهو حق قرابته، ولا شك أن الأخ من أولى الأقربين بالمعروف.

قَوْلُهُ: **(وليكون باعثًا له -إن شاء الله تعالى- على ملازمة ما نورده فيه)** أي: من فضائل، والمراد بالملازمة؛ أي: مداومة القيام

---

(١) انظر: «التكملة لوفيات النقلة» للمنذري (١/ ٢٥٨)، حيث قال: «وفي الثالث من رجب وُلد أخي عبد الكريم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري». أي: في عام (٥٩٢ هـ) فالحافظ المنذري أكبر من أخيه بـ (١١) عامًا رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

(٢) انظر: صلة التكملة لوفيات النقلة، للحافظ عز الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسيني (ص: ٣١٦).

بالأعمال التي ذُكرت فضائلها في الأحاديث، وهذا فيه تنبيه على أن مقصود العلم العمل، وأن طالب العلم ينبغي أن تكون همته في طلبه للعلم وتحصيله أن يعمل به ليكون من أهله؛ إذ لا يكون من أهله بمجرد فهمه وحفظه. وهذا أيضًا فيه تنبيه إلى أن أحاديث فضائل الأعمال من أعظم المعونة للعبد على الأعمال؛ ولهذا يُنصح المسلم بين وقت وآخر أن يقرأ ما كُتب في فضائل الأعمال حتى تتحرك نفسه وتقبل على العمل والعبادة، وأيضًا ليربأ بعمره وزمانه أن يضيع في القيل والقال والنظر للناس من مادح وذام، ومن شعر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اعمل لنفسك صالحًا لا تحتفل ... بظهور قيل في الأنام وقالِ
فالخلق لا يرجى اجتماع قلوبهم ... لا بدَّ من مُثنٍ عليك وقالي[1]

قَوْلُهُ: (**فاستخرتُ اللهَ -تعالى- وجمعتُ له هذا الكتابَ وسمَّيته «كفاية المُتعبِّد وتُحفةَ المُتزَهد»**) منبهًا بهذا العنوان للكتاب أنَّ ما أورده فيه يُعدُّ خلاصةً كافية وتحفةً وافية للمقبل على العبادة لله والزَّهادة في الدنيا.

قَوْلُهُ: (**وجعلته أربعة أبواب:**

الباب الأول: في ذِكر الصلاة. الباب الثاني: في الصيام. الباب الثالث: في الصدقة. الباب الرابع: في الدعاء والذِّكر). هذه الأبواب الأربعة أتت على أمهات العبادات الدينية، وقد جاءت مجتمعة في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الآتي عند المصنف، وهو من أجمع أحاديث الفضائل.

---

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢٦١).
القالي: اسم فاعل من قَلاهُ يَقْليهِ، إذا أبغضه وكرهه.

قَوْلُهُ: (**والله -تعالى- المسؤولُ في أن ينفعنا به وسائر المسلمين، ويجعله خالصًا لوجهه مُقرِّبًا من رحمته بفضله ومَنِّهِ**) وأحسب أن الله قد أجاب دعاءه وحقق رجاءه؛ فقد كُتب لهذه الرسالة انتشارٌ ونفعٌ كبيرٌ في القديم والحديث، وأرجو أن يكون تيسير المولى لهذا الشرح من أسباب مزيد الانتفاع بهذه الرسالة، وبالله وحده التوفيق. ◈







الباب الأول
في الصلاة

قَوْلُهُ: (روى عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى» الحديث متفق عليه)[١].

• الشرح •

صدَّر رَحِمَهُ اللَّهُ أحاديث هذا الكتاب بحديث «**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» وهو أحد قواعد الإيمان وأول دعائمه وأوثق أركانه، مؤتسيًا بأئمة أهل العلم في كثير من المصنفات في الحديث والفقه، حيث صدروها بهذا الحديث[٢]؛ تنبيهًا منهم على أهمية النية وعظيم شأنها ووجوب استحضارها؛ لأن طلب العلم يُعدُّ من أعظم القُرَب، بل كما قال الشَّافعي: «ما تقرَّب متقرِّب بمثل طلب العلم»[٣]، والعبادة لا تُقبل إلاَّ إذا كانت خالصة لوجه الله، وفي

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

(٢) مثل: البخاري في كتابه «الجامع الصحيح»، والبغوي في «شرح السنة»، وغيرهما.

(٣) انظر: المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي (ص: ٣١٠).

الحديث القدسي: «**أَنَا أَغنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي، تَرَكتُهُ وَشِركَهُ**»[١].

وقَوْلُهُ: (**إِنَّمَا الأَعمَالُ بِالنِّيَّاتِ**) أي: إنما الأعمال معتبرة بنياتها، فليست العبرة بالعمل كثرةً وقلةً، وإنما العبرة بصلاح النيَّة، فالعمل وإن كثر مع فساد النية لا يقبله الله.

وقَوْلُهُ: (**وإنما لكل امرئ ما نوى**) لكل امرئ من الثواب بحسب نيته، فإن كانت نيته صالحة؛ وجد ثواب ذلك وأجره، وإن كانت نيته فاسدة؛ وجد عقوبة ذلك ووزره، والله لا يقبل عمل العامل إلا إذا أصلح العامل نيته فيه، وابتغى فيه وجه الله. وقد ضرب النبي ﷺ في هذا الحديث مثالًا للتوضيح، فقال ﷺ في تتمته: «**فَمَن كَانَت هِجرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**» أي: نيةً وقصدًا «**فَهِجرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**» أي: ثوابًا وأجرًا، «**وَمَن كَانَت هِجرَتُهُ لِدُنيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امرَأَةٍ يَنكِحُهَا، فَهِجرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ**» يريد: أن حظه من هجرته ما قصده من الدنيا ولا حظَّ له في الآخرة.

والحاصل أن هذا مثال يوضح عظم شأن النية في قبول العمل، أو عدم قبوله.

ما جاء في فضل الصلاة

قَوْلُهُ: (روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «الصَّلَوَاتُ الخَمسُ، وَالجُمعَةُ إِلَى الجُمعَةِ، كَفَّارَاتٌ لِمَا بَينَهُنَّ، مَا لَم تُغْشَ الكَبَائِرُ». وفي لفظ: «رَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ» أخرجه مسلم)**[٢].

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣).

• الشرح •

بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب الفضائل بفضل الصلاة؛ باعتبار الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، قال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسلَامُ عَلَى خَمسٍ: شَهَادَةِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيتِ، وَصَومِ رَمَضَانَ**»(١). وهي عماد الدين، والعهد الذي بين الإيمان والكفر، والفارق بين المسلم والكافر، فمن تركها فقد كفر، وللصلاة في الإسلام شأن عظيم. فهي صلة بين العبد وربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهي قرة عيون أهل الإيمان وبهجة نفوسهم وراحة صدورهم، وقد قال نبينا ﷺ: «**وَجُعِلَت قُرَّةُ عَينِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢)، وكان يقول ﷺ: «**أَرِحنَا بالصَّلَاة**»(٣)، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة(٤).

فالصلاة شأنها عظيم، وفضائلها كثيرة، وثوابها عند الله جزيل، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع طرفًا من الأحاديث عن رسول الله ﷺ في بيان فضائل الصلاة وعظيم ثوابها عند الله. بدأها بحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الصَّلَواتُ الخَمسُ، وَالجُمعَةُ إِلَى الجُمعَةِ** -وفي رواية: **ورَمَضَانُ إلى رَمَضَانُ- كَفَّارَةٌ لِمَا بَينَهُنَّ، مَا لَم تُغْشَ الكَبَائِرُ**». هذا فيه فضل الصلوات الخمس وأنها مكفرات للذنوب، وتحط خطايا العبد، ويتحقق بها مغفرة ذنوبه، بل إن الصلاة من أعظم موجبات

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وأحمد (١٤٠٣٧)، والحاكم (٢٦٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٩٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨٦)، وأحمد (٢٣٠٨٨)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٢٩٩)، وصححه الألباني.

الغفران وتكفير الذنوب والخطايا.

ولما كان شأن الغفران في الصلاة بهذه المكانة؛ كان طلب الغفران في الصلاة في كل حركة من حركات الصلاة، ففي الاستفتاح طلب للغفران «**اللهُمَّ بَاعِد بَينِي وَبَينَ خَطَايَايَ**»(١)، وفي الركوع والسجود طلب للغفران «**سُبحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمدِكَ، اللهُمَّ اغفِر لِي**»(٢)، وفي الرفع من الركوع طلب للغفران كما في صحيح مسلم: «**اللهُمَّ طَهِّرنِي بِالثَّلجِ وَالبَرَدِ وَالمَاءِ البَارِدِ، اللهُمَّ طَهِّرنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبيَضُ مِنَ الوَسَخِ**»(٣)، وفي الجلسة بين السجدتين طلب للغفران(٤)، وقبل السلام طلب للغفران «**اللهُمَّ إِنِّي ظَلَمتُ نَفسِي ظُلمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنتَ، فَاغفِر لِي مَغفِرَةً مِن عِندِكَ، وَارحَمنِي إِنَّكَ أَنتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(٥)، وبعد السلام طلب للغفران(٦)، فالصلاة في جميع حركاتها وأركانها يطلب المسلم من الله فيها غفران الذنوب، فهي من أعظم موجبات نيل الغفران وتكفير الخطايا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاستغفار يَمحُو الذنوبَ فيُزيلُ العذابَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. وقد كان النبي ﷺ يَطلُب من الله المغفرة في أول الصلاة في الاستفتاح، كما في حديث أبي هريرة الصحيح وحديث علي الصحيح في أول ما يكبِّر،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (٤٧٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٣٧٥)، وابن ماجه (٨٩٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «إرواء الغليل» (٢/ ٤١).

(٥) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

(٦) أخرجه مسلم (٥٩١).

ثم يطلب الاستغفار بعد التحميد إذا رفعَ رأسَه، ويطلب الاستغفار في دعاء التشهد كما في حديث عليٍّ وغيره، ويطلب الاستغفار في الركوع والسجود كما في حديث عائشة الصحيح، ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه. وروى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «**اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنبي كُلَّه، دِقَّهُ وجِلَّهُ، وأوَّلَه وآخرَه، وعلانيتَه وسِرَّه**». فلم يَبقَ حالٌ من أحوال الصلاة ولا ركنٌ من أركانِها إلَّا استغفرَ الله فيه»[1].

وفي هذا الحديث الذي بدأ به المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان عظيم شأن الصلاة في باب غفران الذنوب قال ﷺ: «**الصَّلَواتُ الخَمسُ، وَالجُمعَةُ إِلَى الجُمعَةِ، ورَمَضَانُ إلى رَمَضَانُ- كَفَّارَةٌ لِمَا بَينَهُنَّ، مَا لَم تُغشَ الكَبَائِرُ**» وفي بعض الروايات: «**مَا اجتُنِبَتِ الكَبَائِر**»[2]، فهي مكفرات للذنوب «**مَا لَم تُغشَ الكَبَائِرُ**»، أو «**مَا اجتُنِبَتِ الكَبَائِر**»، أي: إن الكبائر لا بد فيها من توبة إلى الله بإقلاع عنها، وندم على فعلها، وعزم على عدم العودة إليها. وأما الصغائر واللمم، فإنها تكفرها الطاعات والحسنات، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: «**وَأَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا**»[3]. فالكبائر لابد من اجتنابها وتركها والتوبة منها حال الوقوع فيها، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. ◈

❊ ❊ ❊

(١) جامع المسائل (٦/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

قَوْلُهُ: (روى مَعدان بن أبي طلحة قال: لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ فقلت: «أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة» أو قال: «قلت: بأحب الأعمال إلى الله تعالى» فسكت، ثم سألته، فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألت عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «عَلَيكَ بِكَثرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّكَ لَا تَسجُدُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ سَجدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنكَ بها خَطِيئَةً». قال معدان: ثم لقيت أبا الدرداء فسألته، فقال لي مثل ما قال ثوبان. أخرجه مسلم)[1].

• الشرح •

هذا الحديث يوضح مدى حرص السلف على معرفة أبواب البر والخير، ومعرفة فضائل الأعمال، فقد كانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حريصين على هذا العلم، وكثر سؤالهم عن ذلك لعظيم حرصهم على الأعمال ونيل ثوابها، ومعرفة أفضلها وأحبها إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهذا السؤال نظائر كثيرة تدلنا على حرص السلف على هذا الأمر العظيم.

وتكرار السؤال من معدان دليل على حرصه على هذا الأمر، وسكوت ثوبان وعدم إجابته عن السؤال قد يكون إعظامًا للأمر أو تشويقًا للسائل.

قوله ﷺ: «**عَلَيكَ بِكَثرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسجُدُ للهِ** عَزَّوَجَلَّ **سَجدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنكَ بِهَا خَطِيئَةً**». فيه ثواب السجود وأنه من أحب الأعمال إلى الله، بل أعظم ما يكون قرب

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨).

العبد من ربه وهو ساجد، كما في الحديث الآخر: «**أَقرَبُ مَا يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ**»(١)، وهذا المعنى دلَّ عليه القرآن في آخر سورة اقرأ: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]؛ لأن السجود هيئة تذلل لله؛ لأن الأرض تمتهن ويمشى عليها وتوطأ بالأقدام، فعندما يضع المسلم أشرف شيء فيه وهو الجبهة والأنف على الأرض؛ تذللًا لله، وخضوعًا له، وانكسارًا بين يديه، كان بهذا من الذل ما ينال به العبد عظيم القرب من الله.

وقد سمعت قصة إسلام رجل عجيبة، وهي أنه رأى مرة جماعة يصلون، فلما سجدوا ووضعوا جباههم على الأرض متذللين، قال في نفسه: عجيب أمر هؤلاء، الجبهة أشرف شيء في الإنسان ولا يمكن أن يضعها على الأرض على هذه الصفة إلَّا لمستحق، ثم لما انتهوا من صلاتهم سألهم: لمن جعلتم جباهكم هكذا على الأرض؟ فعرَّفوه بالله وبدينه فأسلم، فالحاصل أن هذه الهيئة العظيمة المباركة من الذل والانكسار والخضوع هي أقرب ما يكون العبد من ربه؛ ولهذا حثنا نبينا ﷺ على اغتنام هذه الفرصة المباركة، فرصة السجود والقرب بالإكثار من الدعاء والسؤال.

وقد نبه ﷺ بقوله في هذا الحديث: (عَلَيكَ بِكَثرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَى)؛ وقولِهِ: (فَإِنَّكَ لَا تَسجُدُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ **سَجدَةً)**، على الإخلاص لله لا لرياء ولا لسمعة.

قَوْلُهُ: (وروى ربيعةُ بنُ كَعبٍ الأسلَميُّ قال: كنتُ أبيتُ مع النبيِّ ﷺ فأتيتُه بوَضوئِهِ وحاجتِهِ، فقال لي: «سَل». فقلت: أسألُك مرافَقَتَكَ في الجنَّةِ قال: «أَوَ غَيرَ ذَلِكَ؟». قلتُ: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفسِكَ

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).

بِكَثْرَةِ السُّجُودِ». انفرد به مسلم[١]. وليس لربيعة بنِ كعب في «الصحيح» غيرُه).

• الشرح •

ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من فقراء الصحابة ومن أهل الصُّفَّة من المهاجرين، وممن شرَّفهم الله وأكرمهم بخدمة الرسول ﷺ، والنبي ﷺ خدمه أحرار وعبيد، وربيعة من الأحرار الذين شرَّفهم الله بخدمة الرسول ﷺ، ومثله عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته»، والوَضوء -بالفتح-: الماء الذي يُتَوضأ به، وحاجته؛ أي: ما يحتاج إليه، فقال الرسول ﷺ: «**سَل**». أي: سل عن حاجة، وهذا من كريم خلق النبي الكريم ﷺ ونبل تعامله، ومكافأة أهل النصح والإحسان بما هو أحسن وأعظم.

قَوْلُهُ: (**فَقُلتُ: أَسأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الجَنَّةِ**): لم يلتفت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى شيء من متاع الدنيا، مع أنه من فقراء الصحابة، بل كان تطلعه إلى أمر عالٍ ورفيع، وهو مرافقة النبي ﷺ في الجنة.

قَوْلُهُ: (**قَالَ: «أَو غَيرَ ذَلِكَ». قُلتُ: هُوَ ذَاكَ**) أي: ما أريد إلَّا هذا، فانظر إلى هذه الهمة ما أرفعها وأعلاها! فهو إنما يريد مرافقة النبي ﷺ، ولا يلزم من هذه المرافقة المطلوبة أن يكون في نفس الرتبة؛ لأن الرتبة والدرجة التي هو فيها ﷺ درجة لا يبلغها إلا واحد من عباد الله، وهي خاصة به ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

قَوْلُهُ: (**قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفسِكَ بِكَثرَةِ السُّجُودِ**). أرشده إلى خير العمل، والمراد بكثرة السجود؛ أي: السجود الذي في الصلاة، فحثه على الصلاة ورغَّبه فيها، صلاة تلو صلاة، مكثرًا من الصلاة، ومكثرًا من السجود لله، وليس المراد بكثرة السجود أن يسجد هكذا سجدات منفردة؛ إنما المراد السجود الذي في الصلاة. ولم يقل: أعني على نفسك بكثرة الصلاة -وإن كانت هي المرادة- وإنما قال: «**بِكَثرَةِ السُّجُودِ**»؛ تنبيهًا على عظم شأن السجود.

وبين أهل العلم خلافٌ قويٌّ أيُّ العملين أفضل في الصلاة؟ السجود أم القيام والقراءة، حكاه الإمام ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»[1] في مبحث لطيف ونافع، ثم ذكر في ختامه رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنهما سواء في الفضل، فالقيام؛ لما فيه من قراءة فاتحة الكتاب وما تيسر من القرآن، والسجود؛ لما فيه من ذلٍّ وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: (**فَأَعِنِّي عَلَى نَفسِكَ**): إشارة لما للنفس من كبير أثر على الإنسان، فنفس الإنسان تحتاج إلى مجاهدة ومعالجة، وإلَّا فإنها تتفلت وتميل إلى الكسل والحرام، فتحتاج إلى معالجة دائمة، والله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال النبي ﷺ: «**وَالمُجَاهِدُ مَن جَاهَدَ نَفسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»[2].

فمن كان يريد لنفسه الفضيلة والرِّفعة والدرجات العلا، فليجاهدها على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فبالمجاهدة والمعالجة المستمرة تتحول الصلاة

(١) «زاد المعاد» (١/ ٢٢٨- ٢٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٩٥٨)، والبزار (٣٧٥٢)، وابن حبان (٤٨٦٢)، والحاكم (٢٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).

من أمر ثقيل شاقٍّ على النفس إلى قرة عين وراحة وطمأنينة. ◈

قَوْلُهُ: (**وروى أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: «**مَن تَطَهَّرَ فِي بَيتِهِ وَمَشَى إِلَى بَيتٍ مِن بُيُوتِ اللهِ تعالى، لِيَقضِيَ فَرِيضَةً مِن فَرَائِضِ اللهِ تعالى؛ كَانَت خُطوَاته إِحدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخرَى تَرفَعُ دَرَجَةً**». **أخرجه مسلم**)[1].

• الشرح •

قوله ﷺ: «**مَن تَطَهَّرَ فِي بَيتِهِ وَمَشَى إِلَى بَيتٍ مَن بُيُوتِ اللهِ، لِيَقضِيَ فَرِيضَةً مِن فَرَائِضِ اللهِ**» هذه ثلاث فضائل يترتب عليها هذا الثواب.

الفضيلة الأولى: «**مَن تَطَهَّرَ فِي بَيتِهِ**»: والطهارة في البيت لها أهمية عظيمة، وجاءت في نصوص كثيرة عن رسول الله ﷺ؛ لأنها تعني أنك خرجت من بيتك ومحل راحتك وجلوسك مع أهلك وولدك طاهرًا، ليس لك مقصد ونية إلا الصلاة.

الفضيلة الثانية: «**ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيتٍ مَن بُيُوتِ اللهِ -تعالى-**»: بأن يذهب ماشيًا للصلاة على قدميه، وكلما زادت الخطوات؛ كان الثواب أعظم والأجر أكبر عند الله، فالمشي ذاته إلى المساجد له ثوابه العظيم، ينبغي للعبد الحرص عليه ما استطاع لذلك سبيلًا؛ لتكثر خطواته إلى المساجد.

وفي هذا الباب قصة عجيبة جاءت في صحيح مسلم، يرويها أُبيٌّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرجل من الأنصار، حيث قال أُبيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم (٦٦٦).

رَجُلٌ لَا أَعلَمُ رَجُلًا أَبعَدَ مِنَ المَسجِدِ مِنهُ، وَكَانَ لَا تُخطِئُهُ صَلَاةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: أَو قُلتُ لَهُ: لَو اشتَرَيتَ حِمَارًا تَركَبُهُ فِي الظَّلمَاءِ، وَفِي الرَّمضَاءِ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنزِلِي إِلَى جَنبِ المَسجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَن يُكتَبَ لِي مَمشَايَ إِلَى المَسجِدِ، وَرُجُوعِي إذا رَجَعتُ إِلَى أَهلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَد جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ**»[(١)]. فهذا الحرص كان عن عظيم رغبة وطمع منه أن تكتب خطواته إلى المسجد ذاهبًا وآيبًا.

ومن عجيب القصص في هذا الزمان؛ أن رجلًا مُسنًّا مُقعدًا لا يستطيع أن يمشي على قدميه لكبر سنه، وعلى الرغم من ذلك كان يذهب إلى المسجد زحفًا -حرصًا على الصلاة- فتقرحت رجلاه وركبتاه، ولا يريد أن يركب، فاضطر أبناؤه إلى مدِّ فراش من بيته إلى المسجد يقي رجلي والدِهم من أن تتقرح. وعلى النقيض تجد شبابًا أقوياء أصحاء لكن لا تتحرك أقدامهم إلى بيت الله، نسأل الله العافية، وهذا يبين لنا أن الإعاقة الحقيقية ليست إعاقة البدن، وإنما هي إعاقة القلب.

الفضيلة الثالثة: «**لِيَقضِيَ فَرِيضَةً مِن فَرَائِضِ اللهِ -تعالى-**»: وما تقرب أحد إلى الله بقُربة أحب إلى الله مما افترضه عليه؛ كما في الحديث القُدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عَلَيهِ**»[(٢)]، وفرائض الله التي تُؤدى في المساجد خمس صلوات في اليوم والليلة، وهي أفضل موضوع، وأعظم عمل، وخير ما تقرب به العبد إلى ربه عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: (كَانَت خُطوَاته إِحدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخرَى تَرفَعُ دَرَجَةً): هذا فيه أن خطوات المسجد يجمع المرء لنفسه فيها بين خيرين؛ حَطِّ

(١) أخرجه مسلم (٦٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

خطيئته وغفرانها، وعلو درجته ورفعتها.

قَوْلُهُ: (وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّه سَمِعَ رسولَ الله** ﷺ **يقول: «أَرَأَيتُم لَو أَنَّ نَهرًا بِبَابِ أَحَدِكُم يَغتَسِلُ مِنهُ كُلَّ يَومٍ خَمسَ مَرَّاتٍ، هَل يَبقَى مِن دَرَنِهِ شَيءٌ؟» قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، «قال: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ، يَمحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا». متفق عليه[١].**

والدَّرَن بفتح الدال والراء: الوَسَخ).

• الشرح •

وهذا يدل على عظيم فضل الصلاة في تكفير الخطايا وحط الذنوب، وقد ضرب النبي ﷺ مثلًا يبين عظم شأن الصلاة في تكفير الذنوب ومحوها، كحال رجل أمام بيته نهر يجري، وفي كل يوم يغسل بدنه وينظفه في ماء هذا النهر خمس مرات، فهل يُتصور أن يبقى على بدن هذا الرجل من الوسخ شيءٌ فهذا حال المؤمن مع الصلاة في تكفيرها لذنوبه، فهي «**كنَهْرٍ غَمْرٍ**»[٢] كما في بعض الروايات، أي: مليء بالماء بباب المؤمن يغمس فيه نفسه خمس مرات، فلا يبقى من درنه شيء، قال: «**فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ، يَمحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا**».

قَوْلُهُ: (و«الدَّرَن» بفتح الدال والراء: الوسخ)[٣]: فوسخ الذنوب تزيله الصلاة؛ ومن أدعية الصلاة دعاء النبي ﷺ في الرفع من الركوع:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣٤).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢١١٢)، ولسان العرب (١٣/ ١٥٣)، مادة (د ر ن).

«**اللهُمَّ لَكَ الحَمدُ مِلءَ السَّمَاءِ، وَمِلءَ الأَرضِ، وَمِلءَ مَا شِئتَ مِن شَيءٍ بَعدُ، اللهُمَّ طَهِّرنِي بِالثَّلجِ وَالبَرَدِ وَالمَاءِ البَارِدِ، اللهُمَّ طَهِّرنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوبُ الأَبيَضُ مِنَ الوَسَخِ**»[1]، فالصلاة تنقية للنفس من الذنوب. ◈

قَوْلُهُ: (وروى أبو هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عن النبيّ** ﷺ **قال: «مَن غَدَا إِلَى المَسجِدِ أَو رَاحَ؛ أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَو رَاحَ». متفق عليه. والنُزُل بضم النون والزاي الطعام، والنزل أيضًا الرَّيْع[2] والفضل)**[3].

في هذا الحديث فضل الغدو والرواح إلى المسجد، والغدو: الذهاب في أول النهار، والرواح: الذهاب في آخر النهار، فالغدو والرواح إلى بيوت الله جزاؤه أن يعد الله لصاحبه في الجنة نزلًا؛ أي: ضيافة وكرامة، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

فالنُّزُل: القِرى والضيافة والكرامة التي يعدها الله لأوليائه. فكلما كان العبد حريصًا على صلاته في المسجد غدوًّا ورواحًا، كان ذلك سببًا في زيادة نُزُله في الجنة.

وهذا الحديث من جملة الأحاديث الكثيرة التي تدل على أن الجنة

---

(١) رواه مسلم (٤٧٦).

(٢) الريع: فضل كل شيء على أصله.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

مخلوقة وموجودة الآن، وأن ثواب العباد يتزايد فيها بتزايد أعمالهم، ومثله قول النبي ﷺ: «**مَن قَالَ: سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمدِهِ؛ غُرِسَت لَهُ نَخلَةٌ فِي الجَنَّةِ**»[١].

قَوْلُهُ: (وروى أبو مالكٍ الأشعَريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**الطُّهُورُ شَطرُ الإِيمَانِ، وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملأُ المِيزَانَ، وَسُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملَآنِ -أَو تَملأُ- مَا بَينَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرهَانٌ، وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغدُو؛ فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا**». أخرجه مسلم[٢].

واسم أَبي مالك: عَمرو، ويُقال: عُبَيد، ويُقال: كَعْب).

• الشرح •

هذا حديث عظيم جمع أمورًا عديدة، وهو معدود في جملة جوامع كلم النبي ﷺ، بل هو من أجمع الأحاديث في فضائل الأعمال؛ حيث ذُكر فيه أعمالٌ متنوعة وعبادات متعددة مع ذكر فضيلة كل منها، ذكر فيه فضل الطهارة، وفضل الصلاة، وفضل الصدقة، وفضل الصبر إلى غير ذلك.

قَوْلُهُ: (**الطُّهُورُ شَطرُ الإِيمَانِ**). وفي تفسير (الطهور) هنا قولان:

أولهما: أن المراد به توحيد الله وإخلاص الدين له والخلوص من الشرك؛ لأنه إذا لم يخلص لله ويجانب الشرك لم يُقبل منه عمل. قال

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٦٤)، وابن حبان (٨٢٦)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وثانيهما: أن المراد به -وهو الأقرب-: الوُضوء، ويقوي ذلك أنَّ الحديث ورد في رواية عند الترمذي وغيره بلفظ: «**الوُضُوءُ شَطرُ الإيمان**»[(١)].

والمراد بالإيمان: الصلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم. والوضوء شطر الصلاة؛ لأن الصلاة لا تُقبل إلَّا بوضوء، فصلاة بغير وضوء غير مقبولة، وعبادة بغير توحيد غير مقبولة.

ويمكن أن يؤخذ من المعنيين فائدة يشير إليها أهل العلم في تقرير التوحيد وبيان مكانته في العبادات كلها، فشأن التوحيد والبراءة من الشرك في العبادات كلها كشأن الطهارة في الصلاة، فكما أن الصلاة لا تقبل بدون طهارة، ويصح أن يقال في حق من صلى بدون طهارة: إنه لم يُصل، ولو أدى أركانها وواجباتها؛ لأن الطهارة شرط لا تقبل الصلاة إلا به، فكذلك من يعبد الله بدون توحيد يصح أن يقال عنه: إنه لم يعبد الله وليس عبدًا لله؛ لأنه لا يكون المرء عبدًا لله إلا إذا أخلص العبادة لله، فعبادة بلا توحيد، كصلاة بدون طهارة.

قَوْلُهُ: (**وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملأُ المِيزَانَ**): هذا فيه ثواب الاستكثار من الحمد، وأن هذه الكلمة المباركة تملأ الميزان؛ أي: ميزان الحسنات؛ لأن العبد يوم القيامة يُنصب له ميزان له كِفتان؛ كفة توضع فيها حسناته، وكفة توضع فيها سيئاته، والحمد لله تملأ الميزان، وهذا فيه ثقل هذه

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٧)، والنسائي (٢٤٣٧)، وصححه الألباني.

الكلمة في الوزن، وأن من شأنها أنَّها تملأ الميزان، وقال ﷺ في حديث آخر: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، سُبحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[١]. وهذا حثٌّ على الاستكثار من حمد الله، وأن يحرص المسلم على أن يحمد الله بالكثرة، والحمد ثناء على الله وإثبات الكمال له، والله يُحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، ويُحمد على نعمه المتوالية وعطاياه المتتالية.

قَوْلُهُ: (**وَسُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ لِلَّهِ تَملَآنِ -أَو تَملَأُ- مَا بَينَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ**): وهاتان الكلمتان كثيرًا ما تقترنان في النصوص، إما بهذه الصفة «**سبحان الله والحمد لله**» أو «**سبحان الله وبحمده**». أي: أسبح الله حال كوني حامدًا له مُثنيًا عليه، جامعًا بين تسبيحه الذي هو التنزيه، وحمده الذي هو الثناء عليه جَلَّ وَعَلَا.

والتسبيح، تنزيه لله، والحمد، ثناء على الله بإثبات الكمال له، فالجمع بينهما جمع بين التنزيه للرب عما لا يليق به من النقائص والعيوب ومشابهة المخلوقات، وإثبات الكمال له بإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وعلى هذين الأصلين يقوم المعتقد السليم في باب الأسماء والصفات المبني على قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قَوْلُهُ: (**تملآن**) أي: هما معًا، وقوله: (**تملأُ**) هذا شكٌّ من الراوي، يعني كل واحد منهما يملأ ما بين السماء والأرض. ◈

قَوْلُهُ: (**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**): هذا الشاهد من الحديث؛ أي: ضياء لصاحبها تنير قلبه، وتنير وجهه وقبره وطريقه، فهي نور وضياء، وكُلَّما

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

عظُم حظ العبد من الصلاة عظُم حظه من هذا النور، ولهذا جاء في الحديث الآخر، وهو في المسند بسندٍ جيد قال ﷺ: «**مَن حَافَظَ عَلَيهَا؛ كَانَت لَهُ نُورًا، وَبُرهَانًا، وَنَجَاةً يومَ القِيَامَةِ، وَمَن لَم يُحَافِظ عَلَيهَا؛ لَم يَكُن لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ**»[1]. فالصلاة نورٌ للمسلم في حياته وقبره ويوم القيامة، وإذا قُسمت الأنوار يوم القيامة على العباد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، كان لأصحاب الصلاة النصيب الأوفر؛ لأن الصلاة نور للعبد في حياته ومماته، ويوم لقاء ربه، وهذا يدلنا على الفضل العظيم للصلاة.

قَوْلُهُ: (**وَالصَّدَقَةُ بُرهَانٌ**) أي: برهان على صحة الإيمان وقوته، وصلاح العبد، وقوة إقباله على الله؛ لأن المال غالٍ عند صاحبه، فإخراجه بنفس سخية، موجب للفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وهو برهان على صدق المرء في تقربه وإيمانه.

قَوْلُهُ: (**وَالصَّبرُ ضِيَاءٌ**) أي: لصاحبه في سيره وطريقه، وهذ الصبر يحتاج إليه العبد في جميع أموره؛ وهو منزلة عظيمة من منازل السائرين تصاحب المسلم في جميع أحواله؛ لأن الصبر الذي هو حبس النفس يحتاج إليه العبد في باب الطاعات حتى يقوم بها، فمن لا صبر عنده لا قدرة عنده على القيام بها، وكذلك المعاصي التي أُمر العبد بتركها لا يمكن تركها إلا بالصبر؛ فهو يصبر نفسه ويحبسها عن فعلها. فمقام الطاعة وعدم المعصية يحتاجان إلى صبر لفعل الأولى وترك الأخرى،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٧٦)، وقال الأرنؤوط: «إسناده حسن»، والدارمي (٢٧٦٣)، وابن حبان (١٤٦٧)، وحسن إسناده الإمام ابن باز، كما في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٧٨).

وكذلك المصائب المؤلمة التي يُصاب بها من موت عزيز، أو فقد مال أو ولد، تحتاج إلى صبر على أقدار الله.

فالصبر بأنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله، ضياء لصاحبه يضيء له طريق سيره إلى الله، ومن المعلوم أن السير يحتاج إلى ضياء حتى يواصل السائر سيره في طريق نيرة مضيئة.

قَوْلُهُ: **(وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ)** أي: لا يخلو حال العبد مع القرآن من واحد من اثنين: إما حجة لك أو عليك، وإذا عرف العبد ذلك لا بد أن يعرف متى يكون القرآن حجة له أو حجة عليه؟ حتى يفعل الأول ويترك الثاني. قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان»[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]. هذا قام بزيادة وهذا قام بنقصان.

وإذا أردتَ أن تعرف متى يكون القرآن حجة لك أو عليك، فيلزمك أن تعرف المقصود من إنزال القرآن؛ قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا»[٢] أي: أنهم اقتصروا عَلَى التلاوة وتركوا العمل به. فالقرآن أُنزل للعمل به من العقائد والعبادات والحرام والحلال، فيكون المرء من أهله إذا عمل به؛ ولهذا في الحديث قال: «**يُؤتَى بِالقُرآنِ يومَ القِيَامَةِ وَأَهلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعمَلُونَ**

---

(١) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٧٩).

(٢) رواه الآجري في «أخلاق حملة القرآن» (٣٨).

بِـهِ»[١]، فالذي يعمل بالقرآن هو من أهله، أما الذي يسمع آيات الله ويقرؤها ولا يعمل بها لا يكون من أهلها.

والله لم يوجب على عباده أن يحفظوا آيات القرآن كلها، لكن أوجب العمل به على الجميع، فالعمل بالقرآن واجب؛ وهو الذي من أجله أُنزِلَ القرآن، وبمعنى هذا الحديث قول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[٢].

قَوْلُهُ: (**كُلُّ النَّاسِ يَغدُو، فَبَائِعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُهَا أَو مُوبِقُهَا**)؛ أي: كل الناس في سيرٍ من الصباح منطلقون كلٌّ في طريق.

لكن هذا الغدو على نوعين:

النوع الأول: غادٍ يغدو بائعًا نفسه لله، يرجو رحمة الله وثوابه، لا يعمل إلا بما يرضي الله، متجنبًا كل ما يسخط الله؛ وبهذا البيع أعتق نفسه من عقاب الله.

النوع الثاني: غادٍ يغدو بائعًا نفسه للشيطان والهوى، فكل فعله معصية، فهو في سخط الله وغضبه.

قَوْلُهُ: (**فَمُعتِقُهَا**)؛ أي: أعتقها من العقاب وسخط الله، فكان من الناجين؛ لأنه بهذا البيع لنفسه لله بفعل الأوامر واجتناب النواهي يكون أنجى نفسه من العقاب والعذاب.

قَوْلُهُ: (**أَو مُوبِقُهَا**)؛ أي: مهلكها، أي: مهلك نفسه، والإهلاك للنفس هو الدخول في الموبقات، وهي الكبائر؛ كقوله ﷺ: «**اجتَنِبُوا**

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٧).

السَّبعَ المُوبِقَاتِ»[١]، وإنما سُميت الكبائر موبقات؛ لأنها تهلك صاحبها.

فالناس صنفان: معتقٌ نفسه بالطاعة وعمل الخيرات، أو مهلكها بالمعصية وفعل المنكرات.

فهذا حديث عظيم، وهو «أصل من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام»[٢]. ◈

ما جاء في فضل الصلاة لأول وقتها

(روى عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيّ العملِ أحَبُّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقتِهَا» قلت: ثم أي؟ قال: «بِرُّ الوَالِدَينِ» قلت: ثم أي؟ قال: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»، قال: حَدَّثني بهنّ، ولو استزدتُه لزادني». متفق عليه[٣]).

• الشرح •

الصلاة في أول الوقت هي من المسارعة إلى الخيرات، والمسابقة إليها، وهي من صفات المحسنين؛ ولهذا جاء في النصوص حثٌّ عليها وترغيب فيها، وأن يكون من عناية المرء بهذه الصلوات الخمس التي افترضها الله عليه في اليوم والليلة أن يبادر إلى أدائها في أول وقتها،

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).
(٢) شرح مسلم للنووي (٣/ ١٠٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥).

إلا ما جاء استثناؤه؛ كالإبراد لصلاة الظهر عند اشتداد الحر، وكتأخير العشاء إذا لم يكن في ذلك مشقة، وإلَّا الأولى والأكمل والأتم أن يبادر المرء ويسارع لأدائها في أول الوقت، وهذه الفضيلة دلت عليها دلائل؛ منها هذا الحديث الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَوْلُهُ: (**سَأَلتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ؟). وهذا السؤال وما شابهه تكرر كثيرًا من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على النبي ﷺ، وهذا من حرصهم وعلو همتهم، وعظيم رغبتهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في العناية بفضائل الأعمال ومعرفتها والعمل بها، فكانوا يسألون عن كل ما يقرب إلى الجنة.

كما تدل أيضًا مثل هذه السؤالات المتكررة من الصحب الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على شرف هذا العلم، العلم بفضائل الأعمال، وأنه علم تتوافر همم الصادقين على معرفته والدراية به؛ لأنه أكبر المعونة على العناية بالعمل والحفاظ عليه.

قَوْلُهُ: (**أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ** عَزَّوَجَلَّ؟). وهذا فيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ واعتقاد ذلك، والإيمان بها، وفيه أن الأعمال متفاضلة وليست على رتبة واحدة في الفضل.

قَوْلُهُ: (**قَالَ: الصَّلاَةُ عَلَى وَقتِهَا**). وهذا موضع الشاهد من الحديث، وأورده رَحِمَهُ ٱللَّهُ شاهدًا على فضل الصلاة في أول الوقت، ومن المعلوم أن من صلى الصلاة في أول الوقت أو وسطه أو في آخره؛ يكون قد أدى الصلاة في الوقت، وأدى الواجب، فمن أين أخذ المصنف وغيره من أهل العلم دلالة هذا الحديث على فضيلة الصلاة في أول الوقت؟

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنَّ على للظرفية، والأفعال الواقعة في الأزمان المتسعة عنها لا تستقر فيها، بل تقع في جزء منها، لكنها إذا

وقعت في أول ذلك الوقت، فقد صار الوقت كله ظرفًا لها حكمًا؛ ولهذا سُمِّيَ المصلي مصليًا في حال صلاته وبعدها، وأما قبل الفعل في الوقت؛ فليس بمصلٍّ»[(١)].

قَوْلُهُ: **(قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: بِرُّ الوَالِدَينِ)**: كان الجواب الأول للنبي ﷺ عن أفضل الأعمال بذكر «**الصلاة**» أعظم حقوق الله على عباده بعد التوحيد، ثم جاء الجواب الثاني بذكر ما يتعلق بحقوق العباد وأعظمها، وهو حق الوالدين، وهذا الحق قرنه الله بحقه في آيات عديدة.

قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وهذا يدل على عظم هذا الحق، وأنه من أعظم الحقوق.

والبر بهم هو التعامل معهم بالإحسان والرحمة قولًا وفعلًا؛ القول بأن يكون قولًا لينًا، والدعاء لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، والفعل بالمعاملة بالحسنى، والحد الجامع لبر الوالدين هو: أن تعامل والديك كما تحب أن يعاملك أولادك، كما قال النبي ﷺ: «**وَليَأتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَن يُؤتَى إِلَيهِ**»[(٢)]، هذا جماع أمر البر وحقيقته.

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٤/ ٢٠٩- ٢١٠) باختصار.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

قَوْلُهُ: (قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ) أي: القتال طلبًا لإعلاء كلمة الله؛ لأن القتال تختلف مقاصد الناس فيه، فمنهم من يقاتل حمية، ومنهم شجاعة، ومنهم سمعة، ولا يكون شيء من ذلك في سبيل الله، إلا من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قَوْلُهُ: (حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ استَزَدتُهُ لَزَادَنِي) هذا فيه أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تعاملهم مع النبي ﷺ ورفقهم به، فلم يثقل عليه بالأسئلة، ثم أي ثم أي...، وإنما اكتفى بثلاثة. وفي الوقت نفسه أشار إلى السخاء الذي كان عليه النبي ﷺ في البيان والنصح والدلالة إلى الخير، فالسخاء كما يكون بالمال فإنه يكون أيضًا بالعلم، والنبي ﷺ كان أكثر الناس سخاءً؛ ولهذا يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولو استزدته لزادني ﷺ. ◈

ما جاء في فضل الجماعة

قَوْلُهُ: (روى أبو هُريرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «صَلَاةُ الجَمَاعَةِ أَفضَلُ من صَلَاةِ أَحَدِكُم وَحدَهُ بِخَمسَةٍ وَعِشرِينَ جُزءًا» متفق عليه[1].

وروى عبدُ الله بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ قال: «صَلَاةُ الجَمَاعَةِ أفضَلُ مِن صَلَاةِ الفَذِّ بِسَبعٍ وَعِشرِينَ دَرَجَةً» متفق عليه[2].

قال أبو عيسى التِّرمذي رحمه الله تعالى: وعامةُ مَن روى عن النبيِّ ﷺ إنما قالوا: خمسًا وعشرين، إلا ابن عمر، فإنَّه قال: بسبع وعشرين.

قلتُ: واختلفَ العُلَماء في تأويلِهِ، فقيل: الدرجةُ أصغَرُ من الجُزء.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠).

والفَذُّ: المنفردُ المُصلِّي وَحدَهُ).

• الشرح •

المراد بالجماعة؛ أي: أداء الصلاة المكتوبة جماعة في بيوت الله التي أذن الله أن تقام ليذكر فيها اسمه وتقام فيها الصلاة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور:٣٦- ٣٧].

قف عند قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رِجَالٌ﴾، فالرجولة في أفضل حللها وأبهى صورها، أن يقف مع الرجال في بيوت الله، في الصلوات الخمس حيث ينادى بهن، وليست الرجولة أن تقام الصلاة ويجلس مع أهله أو زوجه أو ولده أو يصلي في بيته، وصح في الحديث: «**مَن سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَم يَأتِهِ، فَلَا صَلَاةَ لَهُ، إِلَّا مِن عُذرٍ**»[1]، وقوله ﷺ: «**لَقَد هَمَمتُ أَن آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى مَنَازِلِ قَومٍ لَا يَشهَدُونَ الصَّلاَةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيهِم بيوتهم**»[2]، وهذا دليل على أن ترك أداء الصلاة مع الجماعة مع القدرة كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ لا يهم بتحريق البيوت إلا في أمر كبير ليس بالهين.

ونقل المصنف عن أبي عيسى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «وعامة من روى عن النبي ﷺ إنما قالوا: خمسًا وعشرين إلا ابن عمر، فإنه قال:

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٥١)، وابن ماجه (٧٩٣)، وابن حبان (٢٠٦٤)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٢٠)، ومسلم (٦٥١).

بسبع وعشرين». والذي جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صحيح ثابت، ولا يعارض الروايات التي جاءت بذكر «**خمس وعشرين**»، والمصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أشار إلى اختلاف العلماء في تأويله، في الجمع بين رواية خمس وعشرين ورواية سبع وعشرين، فذكر في تأويله أن الدرجة أصغر من الجزء؛ لأن في حديث ابن عمر قال: «**سَبع وَعِشرِينَ دَرَجَةً**»، وفي حديث أبي هريرة: «**خَمسَة وَعِشرِينَ جُزءًا**»، فقيل: الدرجة أصغر من الجزء. وهذا القول من أضعف ما قيل في الجمع بينهما؛ لأنه جاء في الصحيحين: «**سَبع وَعِشرِينَ دَرَجَةً**» وأيضًا: «**خَمس وَعِشرِينَ دَرَجَةً**»، فاختلف القدر مع اتحاد لفظ الدرجة فيهما، فلفظ الدرجة ثابت في الصحيحين في القدرين، وذكر العلماء أقوالًا في الجمع بينهما، منها أن القليل داخل في الكثير ولا يعارضه، ومنها أن النبي ﷺ ذكر أولًا الخمس والعشرين، ثم أُعلم فيما بعد أن الثواب يبلغ سبعًا وعشرين فذكر ذلك، ومنها أن الاختلاف في الثواب يختلف باختلاف حال المصلين جماعة، فالمصلون ليسوا على درجة واحدة في الثواب لاختلاف حال صلاتهم. والحاصل أن الخمس والعشرين والسبع والعشرين كلها ثابتة، ولا تعارض كما نبه على ذلك أهل العلم.

ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل

قَوْلُهُ: (روى سَعْدُ بنُ هِشامٍ عن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». انفرد به مسلم**[1].

وروتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت: «مَا رأيتُ رسولَ الله ﷺ في شيءٍ من**

(١) أخرجه مسلم (٧٢٥).

النوافلِ أسرعَ منه إلى الركعتينِ قبل الفَجْرِ». متفق عليه)[١].

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل): المراد بركعتي الفجر النافلة التي قبل فريضة الفجر، وهذه النافلة ورد في عظيم فضلها وجزيل ثوابها عند الله نصوص، منها: حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٢]، وإذا كانت ركعتا الفجر النافلة خير من الدنيا وما فيها، فما الشأن بفريضة الفجر.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[٣]، ولهذا من يكرمه الله بأن يؤدي هذه الصلاة العظيمة والنافلة قبلها فقد أوتي خيرًا عظيما، وكانت فاتحة مباركة ليومه، وكانتا سببًا لحفظه وكفايته في كل يومه.

وقد جاء في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: «**ابْنَ آدَمَ، ارْكَعْ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ؛ أَكْفِكَ آخِرَهُ**»[٤].

قال ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» نقلًا عن شيخه شيخ الإسلام

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٩)، ومسلم (٧٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٤) أخرجه أحمد (٢٧٤٨٠)، والترمذي (٤٧٥)، وصححه الألباني.

ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الأربع عندي هي الفجر وسنتها»[١]. فمن وُفِّق لأداء هذه الصلاة النافلة والفريضة في أول النهار كُفي في يومه كله، وكان في حفظ الله وذمته، كما جاء في الحديث، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ؛ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ**»[٢].

فمن وفِّق لأداء صلاة الفجر فرضها ونفلها في أول النهار وباكورة اليوم فقد أخذ بزمام اليوم، كما قال أحد السلف: «يومك مثل جملك، إن أمسكت أوله تبعك آخره».

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ**»[٣].

وهذا فيه عظيم العناية بهاتين الركعتين؛ ركعتي النافلة قبل الفجر ومن عظيم عنايته ﷺ بها أنه ما تركها في حضر ولا سفر، وهذا مما يدل على عظيم شأن هاتين الركعتين. ◈

ما جاء في فضل المحافظة على الفجر والعصر

قَوْلُهُ: (رَوَى أبو بكر بنُ عُمارَةَ بن رُؤَيْبَةَ عن أبيه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». يعني: الفجرَ والعصرَ. الحديث انفرد به مسلم[٤].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٣٤٨). وقيل المقصود بها: صلاة الضحى.
(٢) أخرجه مسلم (٦٥٧).
(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠).؟
(٤) أخرجه مسلم (٦٣٤).

وروى أبو بكر بن أبي موسى الأَشْعَرِيّ عن أبيه أنْ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ صَلّى البَرْدَيْنِ؛ دخل الجنةَ» متفق عليه[١].

والبردان: الفجر والعصر).

• الشرح •

هاتان الصلاتان العظيمتان خُصتا بالذكر والفضل في نصوص كثيرة لعظيم فضلهما ولما فيهما من المشقة على كثير من النفوس.

فصلاة الفجر تأتي بعد الراحة والسكون والرغبة في البقاء على الفراش ولذة النوم، فيشق على كثير من النفوس القيام لأداء هذه الطاعة العظيمة، وأما العصر، فإنها تأتي في قوة العمل الدنيوي والمصالح الدنيوية واستكمال أعماله في يومه قبل وقت الراحة. فمن وفق للمحافظة عليهما فهو بإذن الله محافظ على بقية الصلوات، فالمحافظة عليهما مع ما فيهما من مشقة على العبد فيه معونة للعبد على المحافظة على بقية الصلوات.

وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما يتعلق بفضل المحافظة على صلاة الفجر والعصر، حديثين:

الأول: حديث أبي بكر بن عمارة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا**». والصلاة التي قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر، والتي قبل غروبها: صلاة العصر.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

قَوْلُهُ: (**لَنْ يَلِجَ النَّارَ**). أي: لن يدخلها، وهذا يدل على ما في هاتين الصلاتين من فضل عظيم؛ وأنَّ المحافظة عليهما حجاب من النار.

والثاني: حديث أبي بكر الأشعري عن أبيه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ**». والبردان: الفجر والعصر، وتسميتهما البردين؛ لأنهما تأتيان في برد النهار؛ فالفجر تأتي في أول برد النهار، والعصر تأتي في آخره.

والمراد بقوله: «**صَلَّى البَرْدَيْنِ**»: المحافظة والمداومة عليهما، فالمحافظة على هاتين الصلاتين موجب لدخول الجنة، وفي الحديث الذي قبله أن المحافظة عليهما موجب للنجاة من النار.

وفي هذا الحديث والذي قبله إشارة إلى أن دخول الجنة والنجاة من النار مرتبط بالعناية بهذه الصلوات، ومن أعظمها شأنًا: الفجر والعصر.

فمن كان تاركًا للصلاة فليس بمسلم ولا يدخل الجنة؛ وإنما يدخل النار كما قال الله عن الكفار الذين يدخلون النار: ﴿**مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ**﴾ [المدثر: ٤٢]، أي: ما السبب الذي كان وراء دخولكم النار؟ ﴿**قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾ [المدثر: ٤٣]، هذا أول جواب يجيبون به، فالصلاة عماد الدين، كما قال النبي ﷺ[(١)].

وقال ﷺ: «**العَهدُ الَّذِي بَينَنَا وَبَينَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَن تَرَكَهَا فَقَد كَفَرَ**»[(٢)].

وقال ﷺ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيهَا؛ كَانَت لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَومَ القِيَامَةِ، وَمَن لَمْ يُحَافِظ عَلَيهَا؛ لَم يَكُن لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ**»[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠).؟؟

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٠).؟؟

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٠).

ما جاء في صلاة الضحى

قَوْلُهُ: (روى أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني حبيبي ﷺ بثلاث أن لا أدعهنَّ ما عشتُ: بصيام ثلاثةِ أيامٍ من كُلِّ شهرٍ، وصلاة الضُّحى، وبأن لا أنامُ حتى أُوترَ». انفرد به مسلم[١].

وروى أبو هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ من كُلِّ شهرٍ، وركعتي الضُحى، وأن أوترَ قبل أن أَرقُدَ». متفق عليه[٢].

وروى أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُصبح على كُلِّ سُلامَى من أحدكم صدقةٌ، فكل تسبيحةٍ صدقةٌ، وكُلُّ تحميدةٍ صدقةٌ، وكُلُّ تهليلةٍ صدقةٌ، وكُلُّ تكبيرةٍ صدقةٌ، وَأَمْرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكر صدقةٌ، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعُهما من الضُّحى». انفرد به مسلم[٣].

واتَّفَقَا على نحوه من حديث أبي هُريرة[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقولُه: كلُّ سُلامى، أي: كُلَّ عظم ومِفْصَل، وأصلُه عظامُ الكَفِّ والأكارع).

• الشرح •

صلاة الضحى صلاة مباركة عظيمة، جاءت نصوص كثيرة عن نبينا ﷺ في الحث عليها، والترغيب فيها، وبيان عظيم ثوابها، وتسمى

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).

(٣) أخرجه مسلم (٧٢٢).

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

صلاة الضحى؛ لأنها تُصلى في هذا الوقت من اليوم، ووقتها يبدأ من انتهاء وقت النهي عن الصلاة بعد الفجر إلى قبيل وقت الزوال بقليل، وأفضل ما تكون هذه الصلاة عند اشتداد حرارة الشمس في منتصف الضحى، كما سيأتي في الحديث. وصلاة الضحى ركعتان، وكلما زاد فهو الأفضل؛ أربع أو ست أو ثمانٍ.

وفي هذين الحديثين أن النبي ﷺ يوصي أصحابه بثلاث من فضائل الأعمال، وصية متكررة أوصى بها غير واحد من أصحابه، وفي هذا دلالة على عظم شأن هذه الأعمال.

قَوْلُهُ: (**أوصاني خليلي ﷺ بثلاث**): هذا لا يعارض ما جاء عن النبي ﷺ: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا**»[1]، فالممتنع أن يَتَّخِذ الرسول ﷺ خليلًا له من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أما أن يُتَّخَذ هو خليلًا فلم يأت منع عنه، ولهذا قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَوْصَانِي خَلِيلِي».

قَوْلُهُ: (**بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**): فالصيام له شأن عظيم جدًّا وأثر بالغ وثواب عند الله كبير، ومن كان مواظبًا على صيام ثلاثة أيام من كل شهر كأنه صام الدهر كله؛ لأن النبي ﷺ قال: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، صَوْمُ الدَّهْرِ**»[2]؛ لأن الله يضاعف الحسنة بعشر أمثالها، فإذا صُمت ثلاثة أيام من كل شهر كأنك صُمت الشهر؛ ولهذا كثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في الترغيب في صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ولك أن تصومها في أول الشهر أو وسطه أو آخره، ولك أن تصومها مجتمعة أو متفرقة؛ المهم أن تواظب عليها كل شهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٧٩)، والنسائي (٤/ ٢١٨)، وابن حبان (٣٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧١٨).

قَوْلُهُ: (**وَصَلَاةِ الضُّحَى**). أي: وأوصاني ﷺ بصلاة الضحى، وهذا فيه بيان لفضيلة هذه الصلاة.

قَوْلُهُ: (**وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ**). وهذا فيه فضل صلاة الوتر والمحافظة عليها، وهي أفضل ما تكون آخر الليل؛ لقول النبي ﷺ: «**اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا**»(١)، ولهذا يحمل هذا الحديث -أي حديث: **وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ**- كما ذكر العلماء على من كان لا يتيسر له أن يقوم آخر الليل؛ فليوتر قبل أن ينام. وإلا إن تيسر القيام آخر الليل يجعل وتره آخره. ◈

ثم أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضل صلاة الضحى حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**». أي: إذا أصبحت واستيقظت في كل صباح تذكر نعمة الله عليك بهذه المفاصل المتحركة في كل أجزاء بدنك كلها، ولولا منة الله عليك بحركة هذه المفاصل لما استطعت أن تقوم من فراشك، وأنت ترى في المستشفيات من المرضى من لا يستطيع أن يقوم؛ لأن مفاصله لا تتحرك، فالمفاصل التي تتحرك في جسمك ثلاثمائة وستون مفصلًا، كل مفصل منها لها حركة موظفة لأداء مهمتها، وهذه نعمة عظيمة تستوجب شكر المنعم كل صباح، وحينما تقوم بمرونة، وتمد يدك، وتمد قدمك، وتتحرك في أي جهة... تتذكر هذه النعم العظيمة.

جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللهَ، وَحَمِدَ اللهَ، وَهَلَّلَ اللهَ، وَسَبَّحَ اللهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩٨)، ومسلم (٧٥١).

عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ»(١).

وهذا هو معنى ما جاء في هذا الحديث: «**يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة**»، كل يوم يتكرر شكر الله على نعمة هذه المفاصل، وهنا لا بد أن ننتبه إلى أمر مهم؛ فهذه المفاصل إذا قمت في الصباح وتذكرت نعمة الله عليك بها، فلتحذر أشد الحذر أن تحرك هذه المفاصل في أمرٍ يسخط الله ويغضبه؛ لأن هذا منافٍ تماما لشكر المنعم؛ لأن من شكر المنعم على هذه المفاصل ألا تستعملها في أمرٍ يسخط المنعم بها.

قَوْلُهُ: (**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**)، جاء في بعض الروايات: «**كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ**»(٢)، أي: أن هذه الصدقة مطلوبة منك كل يوم تطلع فيه الشمس، مطلوب منك شكر الله على هذه المفاصل.

ثم ذكر الناصح الأمين ﷺ أن باب الصدقة باب واسع ومجالاتها متنوعة:

قَوْلُهُ: (**فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ**). بدأ ﷺ بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وهي الكلمات الأربع التي هي أحب الكلام إلى الله، كما في الحديث الصحيح: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**»(٣)، بدأ بها تدليلاً على أن هذه الأربع أعظم

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه مسلم (٢١٣٧).

الصدقات التي تتصدق بها -أيها العبد- على نفسك. فكلما سبَّحت تصدقت على نفسك المفتقرة للأجر، فلا تحرمها من هذه الصدقات، فسبحان الله صدقة، والحمد لله صدقة، والله أكبر صدقة، ولا إله إلَّا الله صدقة؛ ولهذا كثير من الموفقين من عباد الله ممن يكرمه الله بصلاة الفجر، ثم بقراءة الأذكار التي بعد الصلاة، ثم أذكار الصباح، ثم ركعتي الضحى، يكون بإذن الله قد أدَّى شكر نعمة هذه المفاصل.

والمذكور في الحديث من باب التمثيل لا من باب الحصر، فمن وُفِّقَ إلى شكر الله على هذه المفاصل بالتسبيح والتحميد والأذكار وغيرها؛ حفظ الله له يومه كله، وبارك له فيه.

قَوْلُهُ: (وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ). مَن تأمره بمعروف وترشده إلى فضيلة، وتدله إلى خير؛ هذه صدقة منك عليه، حتى لو لم يقبل، وردَّ وصيتك له بعنف، فالصدقة قد حصلت وكُتِبَتْ لك.

قَوْلُهُ: (وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى). قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضبطناهُ (ويَجْزِي) بفَتحِ أوَّلهِ وضمِّهِ؛ فالضَّمُّ منَ الإِجزاءِ، والفتحُ من جزى يجزي؛ أي: كَفَى»[1].

وهذا فيه فضل صلاة الضحى، وينبغي على المسلم أن يحافظ عليها، وأقلها: ركعتان -كما سبق- وفيها من الفضل أنها تجزئ عن الصدقات المطلوبة منك بعدد المفاصل، وإنما كانت هذه الصلاة تجزئ عن ذلك كله؛ لأن فيها عبودية لكل المفاصل، فكل مفاصلك تحركت سجودًا وركوعًا وذلًّا وخضوعًا وعبودية لله عَزَّوَجَلَّ. فالحديث يدل كما

(١) شرح صحيح مسلم (٥/ ٢٣٤).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «على عظم فضل الضحى، وكبر موقعها، وتأكد مشروعيتها، وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة»[(١)]. ◈

ما جاء في عدد صلاة الضحى

قَوْلُهُ: (قد تقدّم أنها ركعتان.

وَرَوَتْ مُعاذَةُ عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كان رسولُ الله ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللهُ». تفرد به مسلم[(٢)].

وروى عبدُ الرحمن بنُ أبي لَيْلَى، قال: ما أخبرَني أحدٌ أنَّه رأى رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي الضُّحى، إلا أمَّ هانئ فإنها حدثت: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ بَيْتَهَا يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ، مَا رَأَيْتُهُ صَلَّى صَلَاةً قَطُّ أَخَفَّ مِنْهَا، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ». متفق عليه[(٣)]).

• الشرح •

تقدم أن صلاة الضحى ركعتان؛ قال ﷺ: «**وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ: رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى**». وإيراد المؤلف حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والحديث الذي بعده يفيدان أن صلاة الضحى أقلها ركعتان، وكلما زاد فأحسن، فهي من باب النافلة المطلقة، أقلها ركعتان، وكلما زاد فهو أفضل، إن صلاها

---

(١) نيل الأوطار (٣/ ٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧١٩).

(٣) أخرجه البخاري (١١٠٣)، ومسلم (٣٣٦).

أربعًا فهو أفضل، وإن صلاها ستًّا فأفضل، وإن صلاها ثمانيًا فأفضل.

ما جاء في الصلاة عند ارتفاع الضحى واستحرار الشمس

قَوْلُهُ: (روى القاسِمُ بنُ عَوْفٍ الشَّيْباني أنَّ زَيْدَ بنَ أَرْقَمَ رأى قومًا يُصَلّون من الضحى فقال: أَمَا لقد عَلِموا أنَّ الصلاةَ في غير هذه الساعة أفضلُ، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ». انفرد به مسلم[1].

والأَوَّاب: قيل: هو الكثيرُ الرُّجُوعِ إلى الله، وقيل: المُطيع، وقيل: المُسَبِّح، وقيل: الرَّاحِم، وقيل: الفقيه.

وقوله: تَرْمضُ -بفتح التاء والميم وضاد معجمة-: هو احتراق أَظْلافِها بالرَّمضاء عندَ ارتفاعِ الضُّحى واسْتِحْرارِ الشمس. والرَّمضاء -مَمدودة-: الرَّمل إذا استَحَرَّ بالشمس. والفِصَال: جمع فَصيل، وهو صِغَارُ الإبل).

• الشرح •

وقت الضحى وقت متسع يبدأ من طلوع الشمس وارتفاعها بقدر رمح، والمراد بقدر رمح أي: فيما يراه الناظر ببصره، وقدره العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ بربع ساعة تقريبًا من طلوع الشمس، فمن بعدها يبدأ وقت صلاة الضحى. وينتهي وقتها عندما تكون الشمس في كبد السماء قبل زوالها بقليل، وأيضًا قُدِّرَ بربع ساعة قبل الزوال.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨).

فصلاة الضحى وقتها بين النهيين؛ النهي الذي بعد طلوع الشمس والنهي الذي قبل زوال الشمس، إن شاء صلاها في أول الوقت أو في وسطه أو في آخره.

قَوْلُهُ: (**صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ**). قيل في معنى الأوَّاب: الكثير الرجوع إلى الله، وقيل: هو المطيع، وقيل: المسبح، وقيل: الراحم، وقيل: الفقيه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في معنى الأواب؛ لأن الأوَّابين جمع لكلمة أوَّاب وهي صيغة مبالغة من الفعل آب، وآب إلى كذا؛ أي رجع إليه، فالأوَّاب هو الكثير الرجوع إلى الله والإنابة إليه توبةً واستغفارًا، وملازمةً لطاعة لله، وعناية بالذكر والتسبيح، وعناية بالتفقه في دين الله. فهذه المعاني كلها التي ذكرت داخلة في معنى الأوبة إلى الله، ومن أعمال الأواب ما جاء في هذا الحديث، وهو صلاة الضحى.

و**قَوْلُهُ**: (**حِينَ تَرْمَضُ الْفِصَالُ**)، بَيَّنَه المصنف بقوله: (**هو احتراق أظلافها بالرمضاء عند ارتفاع الضحى**)، فالرمضاء: هو الرمل الذي احتر بالشمس فإذا صار الرمل حارًّا؛ سمي الرمضاء، فذاك الوقت هو أفضل أوقات أداء هذه الصلاة، وهو في منتصف وقت الضحى.

وزيد بن أرقم لما رأى أناسًا يصلون الضحى في أول الوقت نبَّه على الأفضل؛ أي: أن العمل الذي يقومون به عمل صحيح وجائز، لكن ثمة ما هو أفضل منه، وهو أن تصلى حين ترمض الفصال، وهي صلاة الأوابين.

والفصال -كما بَيَّنَ- جمع فصيل، وهو صغير الإبل الذي يفطم عن الرضاعة من أمه يسمى فصيلا، والجمع فصال، وهذا الصغير من الإبل تؤثر فيه الرمضاء أكثر من الكبير، فيحس بها في أظلافه.

أما فيما يتعلق بـ«صلاة الإشراق» فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ صَلَّى الغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،**

ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ؛ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»[١]، وحسنه غير واحد من أهل العلم، هذه الصلاة -صلاة الإشراق- هي صلاةٌ للضحى في أول وقتها، وإذا وُفِّق المرء وصلَّى في المسجد الفجر في جماعة وجلس في مصلاه، قيل: **مُصلَّاه**، أي: المسجد الذي صلَّى فيه. وقيل **في مصلاه** أي: المكان الذي صلى فيه؛ وقد جاء في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ[٢].

فالأصل في هذه السُّنة بقاء المرء في مكانه الذي صلى فيه، وإذا كان انتقل من مكانه لحلقة علم يحتاج إليها؛ تفقهًا وتبصرًا في دين الله، فالمرجو أن الثواب باق وثابت، وإلا فالأصل أن يبقى في الموضع الذي صلى فيه حتى تطلع الشمس. فإذا ارتفعت الشمس قدر رمح يصلي ركعتين، وصلاة هاتين الركعتين أمرٌ فيه سعة؛ سواء صلاها في المسجد، أو صلاها في بيته. ولعلها في بيته أفضل لقوله ﷺ: «**فَإِنَّ خَيْرَ صَلاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ**»[٣].

قال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد سئل عن صلاة الإشراق هل هي صلاة الضحى؟

«نعم! صلاة الإشراق هي صلاة الضحى في أول وقتها، والأفضل فعلها عند ارتفاع الضحى واشتداد الرمضاء؛ لقول النبي ﷺ: «**صلاة الأوابين حين ترمض الفصال**». رواه مسلم في صحيحه. والمعنى حين

---

(١) أخرجه الترمذي (٥٨٦)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٣)، ومسلم (٧٨١).

تحتر الشمس على أولاد الإبل. وهذا هو معنى ترمض الفصال، ومعنى ترمض أي: تشتد عليها الرمضاء.

وأقل صلاة الضحى ركعتان؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «أوصاني رسول الله ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل النوم».

وثبت عنه ﷺ أنه «صلى صلاة الضحى يوم الفتح ثماني ركعات»، ولا حد لأكثرها على الأصح؛ لقول النبي ﷺ لعمرو بن عبسة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إذا صليت الفجر، فأمسك عن الصلاة حتى تطلع الشمس قيد رمح، ثم صل؛ فإن الصلاة محضورة مشهودة إلى أن تقف الشمس**» أخرجه مسلم في صحيحه مطولًا.

فأمره ﷺ أن يصلي بعد ارتفاع الشمس إلى أن تقف الشمس، ولم يحدد له ركعات، فدل ذلك على أن صلاة الضحى لا حد لأكثرها، والأفضل: أن يسلم من كل ركعتين؛ لقول النبي ﷺ: «**صلاة الليل والنهار مثنى مثنى**». أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا. والله ولي التوفيق»[1]. ◈

ما جاء في الصلاة قبل الظهر وبعدها

قَوْلُهُ: (روت أمُّ حبيبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ حافَظَ على أربعِ ركعاتٍ قَبْلَ الظهرِ وأربعٍ بعدَها؛ حَرَّمه الله على النار»[2]. أخرجه أبو داودَ والترمذيُّ والنَّسائيُّ وابن ماجَه. وقال الترمذيُّ: حَسَنٌ صحيحٌ).

---

(١) مجموع فتاويه (١١/ ٤٠١-٤٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٢٦٩)، والترمذي (٤٢٨)، والنسائي (٣/ ٢٦٥)، وابن ماجه (١١٦٠)، وصححه الألباني.

• الشرح •

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بالراتبة القَبْليَّة والبَعْدِيَّة للظهر، وأورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أم حبيبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا؛ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**». وهذا فيه عظم الفضيلة والثواب لمن وفقه الله للمحافظة على أربع ركعات قبل الظهر وأربع ركعات بعدها، من يحافظ عليها حَرَّمَ الله جَسَدَه على النار، ودخل الجنة.

ما جاء فيمن صلى في يوم ثنتي عشرة ركعة

قَوْلُهُ: (روت أمُّ حبيبةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي لِلَّهِ -تعالى- كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا، من غَيْرِ فَرِيضَةٍ، إِلَّا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ» انفرد به مسلم[(١)]).

• الشرح •

بَيَّنَ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بفضل السنن الرواتب، وهي سنن الصلوات الخمس المكتوبة، وعددها كما بُين في الحديث اثنتا عشرة ركعة.

وقد روى الترمذي الحديث بنحو ما رواه مسلم وزاد فيه زيادة توضح تفصيل هذه السنن الرواتب، فزاد فيه: «...**أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ**،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٨).

وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ»[١]. فهذه اثنتا عشرة ركعة، ومن وفقه الله فحافظ عليها وواظب عليها في اليوم والليلة؛ بنى الله له بيتًا في الجنة.

وفي حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن السُّنة البعدية للظهر ركعتان وحديثها الذي قبله فيه أن السنة البعدية للظهر أربع، والحديثان كلاهما ثابت، ولا تعارض بينهما، بل كما قال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الجمع بينهما: إن ذلك محمول على التوسعة في ذلك، وأن الراتبة البعدية لها أقل، ولها أكثر، فمن أتى بالأقل؛ حَصَّلَ أصل السنة، ومن أتى بالأكثر حَصَّلَ الأكمل والأفضل. وعليه فإن المسلم ينبغي أن يحرص على أن يصلي بعد الظهر ركعتين يواظب عليها، وإن زاد وجعلها أربع ركعات، فهذا أكمل وأفضل.

وإذا تأملنا عدد ما يواظب عليه المسلم في ليله ونهاره من الصلوات: فإنَّ المكتوبة سبع عشرة ركعة، والسنة الراتبة اثنتا عشرة ركعة، وهي التي جاءت في حديث أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكون المجموع تسعًا وعشرين ركعة، وصلاة الليل إحدى عشرة ركعة، حتى وإن فاتته صلاة الليل صلاها من الضحى فيتم له بهذا المواظبةُ على أربعين ركعة في اليوم والليلة.

وفي شأن هذه الأربعين يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكان مجموع صلاة الفريضة والنافلة في اليوم والليلة نحو أربعين ركعة»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه أربعون ركعة وِرْدُه دائمًا: الفرائض

(١) أخرجه الترمذي (٤١٥)، وصححه الألباني.
(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٨/ ٣٤١).

وسننها وقيام الليل والوتر»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «فينبغي على العبد أن يواظب على هذا الوِرْد دائمًا إلى الممات، فما أسرع وأعجل فتح الباب لمن يقرعه كل يوم وليلة أربعين مرة. والله المستعان»[٢].

جامع ما جاء في صلاة الليل

قَوْلُهُ: (روى أبو هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ شَهرِ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ، بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، صَلَاةُ اللَّيْلِ» انفرد به مسلم[٣]).

• الشرح •

في هذا الحديث أنَّ صلاةَ الليل أحبُّ الصلاة إلى الله بعد الصلاة المكتوبة، قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]؛ وذلك لأنَّ القيام بين يدي الله خضوعًا وتذللًا في جوف الليل رجاءً لما عند الله من أعظم القرب، لما فيها من صفاء المناجاة وقت هجعة الناس وسكون الكون؛ ولأنَّ النفس تركن للراحة، والبقاء في الفراش، ففيه المشقة إلا على الخاشعين ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

---

(١) الصلاة وأحكام تاركها (ص١٧٢).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (١/ ٣١٦-٣١٧).
(٣) أخرجه مسلم (١١٦٣).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولعمري إن صلاة التهجد لو لم يكن فيها فضل سوى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة: ١٦-١٧] وغيرهما من الآيات؛ لكفاه مزية»[(١)].

ثم إنَّ هذا الحديث فيه فضل الفرائض، وعلو شأنها، وتقدمها في الفضل على النوافل، وأنه ما تقرب متقرب بمثل ما افْتُرِضَ عليه. ولهذا لما ذكر صيام النفل؛ جعله بعد الفرض، ولما ذكر صلاة النفل جعلها بعد الفرض؛ وقد جاء في الحديث القدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[(٢)].

فالتقرب إلى الله بالنوافل يكون بعد المحافظة على فرائض الإسلام؛ ولهذا قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلًا عن بعض أهل العلم: «من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور»[(٣)]. ◈

قَوْلُهُ: (وروى أبو هُريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النبيَّ ﷺ قال: «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافِيَةِ رأس أحدكم ثلاث عُقَدٍ إذا نام، بكُلِّ عقدةٍ يَضْرِبُ عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلَّتْ عنه عقدة، وإذا توضأ انحلَّتْ عنه عُقْدتَانِ، فإذا صلّى انحلَّتِ العُقَدُ فأصبح نَشيطًا طَيِّبَ النفسِ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفسِ كَسْلانَ». متفق عليه[(٤)].

---

(١) تحفة الأحوذي (٢/ ٤٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

قوله: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ». اختلفت العلماء في تأويله:

- فقيل: هو مَثَل واستعارة من عَقْدِ بني ادم.

- وقيل: بل هو على ظاهره، وأن الشيطان يفعل من ذلك نحو ما يفعله السواحر من عقدها ونفثها.

وقوله: «قَافِيَةِ أَحَدِكُمْ»: أي: قفاه، ومنه قافية الشِّعر؛ وهو آخر البيت).

• الشرح •

هذا الحديث أورده رَحِمَهُ اللَّهُ في الحث على قيام الليل، وقد أورده غير واحد من أهل العلم في باب الحث على قيام الليل.

وهذه العُقَد التي يعقدها الشيطان على القافية -والقافية: هي مؤخرة الرأس- هي عقد حقيقية.

قَوْلُهُ: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ). هو على عمومه إلا ما دل الحديث على استثنائه من ذلك؛ وهو الذي ينام على ذكر الله متحصناً بقراءة القرآن والأذكار المأثورة عن النبي الكريم ﷺ فلا يقربه شيطان، ولا يزال في حماية الله وحفظه، فمن قرأ آية الكرسي عندما يأوي إلى فراشه[1]، وقرأ الإخلاص والمعوذتين، ونفث ومسح على بدنه

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ، فجعل يحثو من الطعام؛ فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ... -فذكر الحديث-، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب؛ ذاك شيطان**».

كما جاء في الصحيح[١]، وجاء بالأذكار المشروعة كانت أذكاره حصنًا حصينًا له، وحرزًا واقيًا من الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾، أي: الذين يذكرون الله ليس لك عليهم سبيل، فالذاكر لله في حصن حصين، يكون واقيًا له بإذن الله من الشيطان الرجيم.

قَوْلُهُ: (بكُلِّ عقدةٍ يَضْرِبُ: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقد). هذا يوضح أن المقصد من العقد؛ هو تثبيط المرء عن القيام لطاعة الله، قال ﷺ: «**فَإِذا اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللهَ -تعالى- انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، وَإِذا تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عَنْهُ عُقْدَتَانِ، فَإِذا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ**». فيه أن نهوض المرء وقيامه لأداء طاعة الله ومناجاته في جوف الليل من موجبات فك العقد، ومن أثرها نشاط الروح والبدن؛ فراحة النفس، ونشاط البدن، وسعادة القلب في الصباح كلها من فوائد وثمرات قيام الليل كما قال ﷺ: «**فأصبح نشيطًا طيب النفس**».

قَوْلُهُ: (وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ)، أي: إذا استمر ولم ينهض يكون من موجبات ذلك؛ خموله وكسله وخبث نفسه، ثم إذا استمر المرء حتى يصبح؛ يكون ذلك من موجبات بول الشيطان في أذنه؛ كما صح بأنه ذُكِرَ للنبي ﷺ رجل نام حتى أصبح، فقَالَ ﷺ: «**ذَاكَ**

(١) أخرجه: البخاري (٥٠١٧).

رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»، أو قال: «**فِي أُذُنِهِ**»[(١)]. والمراد: بال في أذنه بولًا حقيقيًّا مستهينًا به، حتى جعل أذنه كالكَنِيف المُعَدِّ للبول فيه، ومرحاضًا له يبول فيه، ومَن هذا الذي يرضى أن تكون أذنه كَنِيفًا للشيطان ومكانًا لبوله، وهذا يبين فضل الطاعة عامة، وأهمية الصلاة خاصة، وأنها من الأسباب التي تقي العبد من الشيطان، وأن قيام الليل والنهوض في جوف الليل - ولا سيما ثلث الليل الأخير - من موجبات السعادة والراحة والبركة في يومه، لمن يوفقه الله لقيام الليل.

قَوْلُهُ: (**اختلفت العلماء في تأويله**). أي: تأويل قوله: «**يعقد الشيطان**».

قَوْلُهُ: (**فقيل: هو مثل واستعارة**). أي: ليست عُقَدًا حقيقية، وإنما هي تمثيل واستعارة من عقد بني آدم، وهذا الكلام لا يصح؛ لأن القاعدة عند أهل السُّنة: أن الأمور الغيبية تمر كما جاءت، ويؤمن بها كما وردت، دون صرفها عن ظاهرها، وأما تأويلها وصرفها عن مرادها، والزعم أنها استعارة؛ هذا كله من القول في حديث رسول الله ﷺ بلا علم.

قَوْلُهُ: (**وقيل: بل هو على ظاهره، وأن الشيطان يفعل من ذلك نحو ما يفعله السواحر من عقدها ونفثها**). هذا هو الحق، والحق أن الأمور الغيبية يؤمن بها على ظاهرها كما أخبر ﷺ، وقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤]، أي: السواحر اللاتي يعقدن عقدًا ينفثن فيها. ◈

قَوْلُهُ: (**وروى مسروقٌ قال: قلتُ لعائشةَ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: الدائمُ، قلتُ: فأيُّ الليلِ كان يقومُ؟ قالت: إذا سَمِعَ**

(١) أخرجه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤).

الصَّارِخَ. متفق عليه[١].

والصَّارِخُ: الديك، قاله أبو عُبيد الهروي[٢]).

• الشرح •

هذا السؤال من مسروق -وهو من علماء التابعين- لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له نظائر كثيرة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون النبي ﷺ عن ذلك، أيُّ العمل أفضل؟ أو أيُّ العمل أحب؟ وهذا يدل على حرصهم وحرص السلف على الفضائل، وهذا ينبه طالب العمل أن المقصود من فضائل الأعمال ليس مجرد الوقوف عليها، وإنما الغرض منها العمل بها والقيام بها على الوجه الذي يرضيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو القائل في الحديث القدسي: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[٣]. فالغرض منها أن تكون معونة له على الأعمال.

قَوْلُهُ: (**أي الأعمال أحب إلى الله؟ قالت: الدائم**). وهذا هو أحب العمل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال النبي ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ**

(١) أخرجه البخاري (١١٣٢)، ومسلم (٧٤١).

(٢) لم أقف عليه في كتاب الغريب المصنف لأبي عُبيد القاسم بن سلّام الهروي. وقال أبو الفرج ابن الجوزي في كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤/ ٢٧٩): «وأما الصَّارِخ فقال الحميدي: هو الديك». وقال النووي في شرحه على مسلم (٦/ ٢٣): «الصارخ هنا هو الديك باتفاق العلماء، قالوا وسمي بذلك لكثرة صياحه».

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

إِلَى اللهِ؛ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»[١]، فالدائم هو الأحب ولو كان قليلاً يدوم عليه العبد، فقليل دائم خير من كثير يفعله المرء مرة أو مرتين أو ثلاث ثم يملُّ وينقطع.

ومسألة الديمومة في العمل والاستمرار هي من المسائل المهمة المعينة في الاستقامة على طاعة الله، وينبغي أن يعتني بها العبد عناية عظيمة؛ لأن كثيرًا ممن يقبل على الاستقامة تَملُّ نفسه من الأعمال المداوم عليها أسبوعيًّا أو شهريًّا، ثم يرى أن العمل شاق وثقيل، وأنه لا يستطيع أن يصبر عليه. فالتمرين للنفس على طاعة الله في أعمال تبقى للمرء يداوم عليها خير من كثير يفعله مرة أو مرتين، ثم ينقطع عنه، فأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

قَوْلُهُ: **(قلت: فأي الليل كان يقوم؟)**. سؤال عن الأفضلية؛ فالليل كله وقت قيام؛ لأن النبي ﷺ صح عنه أنه أوتر من كل الليل، أوتر من أوله، ومن وسطه، ومن آخره[٢]، لكن السؤال عن الأفضل.

قَوْلُهُ: **(قالت: إذا سمع الصارخ)**. الصارخ: هو الديك، وإذا سمع المسلم صياح الديك فإنه يشرع له أن يسأل الله من فضله، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيكَةِ، فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا**»[٣].

والديك يوقظ المسلم، ويسمى الصارخ؛ لأنه بعد منتصف الليل وفي حدود الثلث الأخير من الليل يبدأ يصيح فيكون صياحه منبهًا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩٦)، ومسلم (٧٤٥) عن عائشة قالت: «مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَانْتَهَى وِتْرُهُ إِلَى السَّحَرِ».

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩).

للناس على أن الليل قد انتصف، وأنَّ وقت القيام قد بدأ.

وقد ورد في فضل الديك -فيما يتعلق بهذا التنبيه- قول النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الدِّيكَ؛ فَإِنَّهُ يُوقِظُ لِلصَّلَاةِ**»[١].

فإذا كان النبي ﷺ نهى عن سب الديك؛ لأنه يوقظ للصلاة، فكيف الشأن بسبِّ العلماء الذين يوقظون القلوب وينبهون الغافلين من عباد الله، فهذا الإيقاظ الذي هو عمل أهل العلم أعظم من إيقاظ الديك؛ فهم أولى رعايةً لأقدارهم وحفظًا لمقامهم الرفيع.

قَوْلُهُ: (وروى عبدُ الله بنُ عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللهِ! لا تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ» متفق عليه[٢]).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (لا تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ). قال الحافظ ابن حجر: «لم أقف على تسميته في شيءٍ من الطرق، وكأن إبهام مثل هذا لقصد السترة عليه... ويحتمل أن يكون النبي ﷺ لم يقصد شخصًا معينًا، وإنما أراد تنفير عبد الله بن عمرو من الصنيع المذكور»[٣].

قَوْلُهُ: (كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ). هذا فيه تأكيد على

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٠١)، وأحمد (٢١٦٧٩) بلفظ: «**فإنه يدعو إلى الصلاة**»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

(٣) فتح الباري (٣/ ٣٧-٣٨).

المعنى المتقدم أن أحبَّ العمل هو الدائم، وكون المرء يداوم من الليل على ثلاث ركعات، أو خمس ركعات خير من كثير ينقطع، فهذا تأكيد على المداومة والاستمرار على العبادة.

قَوْلُهُ: (وروت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما كانَ رسولُ الله ﷺ يَزِيدُ فِي شَهرِ رَمَضَانَ، وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا، فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي». متفق عليه[١].

وروى القاسم، قال: سمعتُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ عَشْرَ رَكَعَاتٍ، وَيُوتِرُ بِسَجْدَةٍ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَي الْفَجْرِ، فَتْلِكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً». متفق عليه[٢]).

• الشرح •

بين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذين الحديثين عدد الركعات التي كان يركعها النبي ﷺ من الليل، وأنه ما كان يزيد على إحدى عشرة ركعة. ووصفت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذه الإحدى عشرة ركعة أنها كانت أربعًا ثم أربعًا ثم ثلاثًا. فهذه صلاته من الليل، وكان يطيل فيها، وثبت عنه أنه يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين؛ فالسُّنة أن يفتتح المرء صلاته من الليل بركعتين خفيفتين.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٨).

وذكر العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّ الحكمة في ذلك: تنشيط المرء وتهيئته للإطالة في باقي الركعات، ويختم صلاته من الليل بركعة واحدة، كما قال النبي ﷺ: «**اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا**»(١)، وقوله في الحديث الثاني: «**وَيُوتِرُ بِسَجْدَةٍ**»(٢).

أما وقت صلاة الليل: فمن بعد صلاة العشاء إلى أذان الفجر، حتى لو كان المرء مسافرًا، فقدَّم العشاء مع المغرب، تبدأ صلاة الليل من بعد صلاته العشاء، فالحاصل أن وقت صلاة الليل وقت متسع؛ إن شاء صلاها في أوله أو في وسطه أو في آخره، لكن لا يدع هذا الحظ والنصيب من الليل.

وأفضل وقت لقيام الليل في الثلث الأخير من الليل -كما مر معنا- إذا سمع الصارخ، وهو وقت التنزُّل الإلهي، كما في الحديث المتواتر عن نبينا ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٣)، وهو أحرى أوقات الإجابة وأعظم أوقات الاستغفار؛ قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. ◈

دعاء الاستخارة

قَوْلُهُ: (وروى جابرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبيُّ ﷺ يُعَلِّمنا الاستخارةَ في الأمور كُلِّها كالسورةِ من القُرآن: «إذا هَمَّ أَحَدُكمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩٨)، ومسلم (٧٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ». انفرد به البخاري[(١)]).

• الشرح •

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث الاستخارة وأنه يشرع للمرء أن يأتي بها فيما يهمه من الأمور، وما يُقدِم عليه من المصالح والحاجات، ولاسيما ما كان يجهل عاقبته ويتردد فيه؛ فيأتي بهذه الصلاة العظيمة مفوِّضًا أمره إلى الله متوكلًا عليه معتمدًا عليه وحده راجيًا الخيرة في أمره من ربه، وما خاب من استخار؛ لأن من فوض أمره إلى الله؛ يكون قد فوض أمره إلى من بيده تصريف الأمور، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وهذه الاستخارة التي مَنَّ الله بها على أمة الإسلام جاءت عوضًا لهذه الأمة عمَّا كان عليه أهل الجاهلية من الاستقسام بالأزلام، والزجر للطير، وغيرها من الأمور التي كانوا يفعلونها من أجل معرفة هل هي

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).

رابحة أو خاسرة؟! فوقى الله أهل الإسلام من هذه الجاهلية؛ فإذا همَّ المسلم بأمر أو شأن من شؤونه فزع إلى هذه الصلاة، فيصلي ركعتين ملتجئًا إلى الله، ثم يدعو عقب الصلاة بهذه الدعوات المباركة العظيمة التي كان يعلمهم إياها النبي ﷺ كما يعلمهم السورة من القرآن، مما يدل على عِظم شأن هذه الدعوات من جهة، وعِظم شأن حفظها بألفاظها الثابتة عن رسول الله ﷺ من جهة أخرى، فهي دعوات عظيمة ينبغي أن يكون المسلم ذا عناية بها من جهات ثلاثة:

من جهة حفظ ألفاظها كما وردت عن النبي ﷺ.

ومن جهة فهم معانيها ومدلولاتها؛ لأن الدعوات المأثورة يقوى أثرها وتكبر فائدتها بحسب فهمِ المرء لها ومعرفتهِ مدلولها، فشتان بين من يدعو بدعاء يفهم معناه ويعرف مدلوله، وبين من يدعو ولا يعقل معنى ما يدعو به.

والجهة الثالثة مواظبة الإنسان على هذه الدعوة بين يدي أموره ومصالحه وحاجته، ولا سيما ما كان مترددًا فيه ويجهل عاقبته.

ولهذا لا استخارة فيما افترضه الله ولا فيما حرمه الله على عباده، فالواجب يُفْعَل مباشرة، والمحرم يُتْرَك مباشرة. ومصالح الإنسان التي يُقدم عليها من سفر ومعاملة وتجارة... فإنه يستخير الله فيها بهذه الصلاة العظيمة، داعيا الله بالدعوات المباركة، طالبًا منه أن يختار له الخير، مفوِّضًا أمره إلى من بيده الأمر؛ وما خاب من استخار ربه وفوض أمره لسيده ومولاه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ**) أي: يعلمهم دعاء الاستخارة كالسورة من القرآن، لأنه مطلوب حفظها بألفاظها، فيأتي بها متقنة كما جاءت عن نبينا ﷺ، ولا مانع إن

لم يتيسر حفظها واحتاج أن يستخير، أن يقرأها من ورقة تكون بيديه إلى أن يتمكن من حفظ هذه الدعوات المباركة.

قَوْلُهُ: (**يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا**). هذا يبين لنا عموم وشمول هذه الاستخارة العظيمة لجميع أمور المرء ومصالحه التي تهمه، ويقدم عليها ولا سيما ما كان منها مجهول العاقبة هل هو نافع أو ضارّ؟ هل هو رابح أو خاسر؟ هل هو ناجح أو غير ناجح؟ فإنه بين يدي هذه الأمور يستخير ربه داعيًا بهذه الدعوات المباركة العظيمة.

قَوْلُهُ: (**إذا هَمَّ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**). أي: إذا عزم وأقدم على الأمر. **والهمّ**: هو العزيمة على فعل الشيء. وجاء في بعض الروايات: «**من غير الفريضة**»، فإما أن تكون سنة راتبة، أو تحية المسجد، أو أنشأ صلاة ركعتين من أجل الاستخارة، المهم أن تكون غير الفريضة، ولم يأتِ في شيء من روايات الحديث تخصيص سورٍ أو آيات يقرؤها، وإنما يقرأ ما تيسر.

وهاتان الركعتان وسيلة إلى الله لإجابة هذا الدعاء؛ لأن الصلاة من أعظم الوسائل لإجابة الدعاء. فالصلاة صلة بين العبد وبين ربه جَلَّوَعَلَا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمر النبي ﷺ الداعي به أن يقدم بين يدي هذا الدعاء ركعتين؛ عبودية منه بين يدي نجواه، وأن يكون من غير الفريضة؛ ليتجرد فعلهما لهذا الغرض المطلوب»[1].

ويأتي بالدعاء بعد الفراغ من الصلاة سواء قبل السلام أو بعده. والأولى -والله أعلم- أن يكون بعد السلام؛ لأنه في الحديث: «**فليركع ركعتين ثم يقول**»، فـ«ثم» تفيد التراخي والمهلة بعد هاتين الركعتين

(١) شفاء العليل (١١١).

المأتي بهما قبل هذا الدعاء، وإن أتى بها قبل السلام فلا حرج.

وإذا دعا بعد السلام فله أن يرفع يديه وهو يدعو بهذه الدعوة؛ عملًا بعموم الأدلة منها قول النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا**»[(١)]، وإذا دعا قبل السلام فيدعو بلا رفع؛ لأنه ليس موطن رفع لليدين في الصلاة.

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ**). حرف السين في أستخيرك للطلب من الله أن يختار لي الخير؛ مفوضًا أمري إليه جَلَّ وَعَلَا، ويسمي الأمر الذي استخار من أجله.

قَوْلُهُ: (**بِعِلْمِكَ**). هذا توسل بعلم الله الذي وسع كل شيء، علم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون.

قَوْلُهُ: (**وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ**). هذا توسل إلى الله بقدرته، وفي الدعاء يجب مراعاة الصفة المناسبة للمطلوب، فلما سأل الخيرة؛ ناسب التوسل إلى الله بالعلم، ولما سأل التيسير للأمر والقدرة عليه توسل إلى الله بالقدرة، فإن لم ييسره له فهو متعسر عليه.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ**) أي: تقدر أن تجعلني قادرًا فاعلًا ولا أقدر أن أجعل نفسي كذلك.

قَوْلُهُ: (**وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ**) أي: العلم بعواقب الأمور ومآلاتها، والنافع منها والضار عندك وليس عندي.

وهذا من أعظم الوسائل وهو توسل إلى الله بأمرين:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وأحمد (٢٣٧١٤)، وصححه الألباني.

الأول: إظهار العبد لفقره وعجزه وقلة علمه وضعف حيلته، وأنه لا يعلم ولا يقدر ولا حول له ولا قوة، فهذا تعبد لله بالافتقار وإظهار العجز.

الثاني: التوسل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدرته الكاملة، وعلمه الواسع المحيط بكل شيء.

قَوْلُهُ: (**وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ**). أي: أحاط علمك بكل شيء، تعلم ما خفي من الأمور وما بطن، فالسر عندك علانية، والغيب عندك شهادة، لا تخفى عليك خافية. قال تعالى: ﴿ **سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ** ﴾ [الرعد: ١٠].

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي**). فيه تفويض الأمر إلى الله لحصول الخيرة في حاجة العبد ومصلحته، فيفوض الأمر إلى الله، داعيًا اللهم إن كنت تعلم -يسمي حاجته- سفري هذا، أو زواجي بفلانة بنت فلان، أو صحبتي لفلان بن فلان... وهكذا.

قَوْلُهُ: (**خَيْرٌ لِي فِي دِينِي**). حتى لو كان أمرًا دنيويًا في التجارة أو غيرها، فلك أن تسأل الله الخيرة وأن يكون خيرًا لك في دينك؛ لأن الأمور الدنيوية إذا وفقك الله واختار لك فيها الخير كانت لك معونة على الدين والطاعة، وإن كانت أمور الدنيا خلاف ذلك كانت موجبة للطغيان.

قَوْلُهُ: (**وَمَعَاشِي**). أي: مصالحي الدنيوية.

قَوْلُهُ: (**وَعَاقِبَةِ أَمْرِي**). أي: يوم القيامة يوم وقوفي بين يدي الله، فتسأل الله الخيرة في هذا الأمر، وأن يكون صلاحًا لك في دينك ودنياك وآخرتك.

واجتمع في هذه الدعوة الأمور الثلاثة التي اجتمعت في الدعوة المباركة التي كان يدعو بها النبي ﷺ: «**اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي**

الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[١]، فسأل الله الصلاح في هذه الأمور الثلاثة.

قَوْلُهُ: (**أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ**). هذا شك من الراوي، فلا يجمع عند الدعاء بين اللفظين بل يقتصر على أحدهما. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصحيح اللفظ الأول، وهو قوله: «**وعاقبة أمري**»؛ لأن عاجل الأمر وآجله هو مضمون قوله: «**ديني ومعاشي وعاقبة أمري**»؛ فيكون الجمع بين المعاش وعاجل الأمر وآجله تكرارًا بخلاف ذكر المعاش والعاقبة، فإنه لا تكرار فيه؛ فإن المعاش هو عاجل الأمر والعاقبة آجله»[٢].

قَوْلُهُ: (**وَاصْرِفْنِي عَنْهُ**). أي: أبعد هذا الأمر عني، وأبعدني عنه، وأبعد عن قلبي التعلق به؛ لأنه قد يكون القلب متعلقًا به وطامعًا به، فيسأل الله الصرف عنه.

قَوْلُهُ: (**وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ**) أي: وفقني للخير الذي تعلمه حيث كان.

قَوْلُهُ: (**ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**). هذا مطلب عظيم بعد أن يقدّر للعبد الخير، وقد يحصل له ما لا ترضاه نفسه، ولا يقنع به؛ فيسأل الله الرضا بهذا الخير وهذا الرضا هو قناعة العبد بما آتاه الله من خير ورضاه بما قسم له، فلا يزدري النعمة بل يندرج في سلك الراضين الشاكرين.

وحينئذ إذا قدر الله له شيئًا بعد هذه الاستخارة فهو خير له؛ يمضي فيه متوكلًا على الله، وإن صرف الله همته عنه فهذا يعني بأنه ليس خيرًا له.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).

(٢) جلاء الأفهام (٣٢٤).

فهذه دعوة مباركة وعظيمة كان النبي ﷺ يعلمها أصحابه الكرام رضـوان الله عليهم كما يعلمهم السورة من القرآن؛ جاءت مشتملة على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية وحسن اللجوء إلى الله وتفويض الأمر إليه، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. ◈





الباب الثاني
في الصيام

[فضل الصيام]

(روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فإنه لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ -تَعَالى- يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إذا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ». متفق عليه[1].

وقوله: فلا يَرْفُثْ بضم الفاء وكسرها، أي: لا يأتي برفث الكلام وفُحشِهِ.

قال الأزهري: هي كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ ما يريده الرجلُ من المرأة[2]، ويكون الرَّفثُ: الجماع، ويكون: ذِكْر الجماع، والحديثُ به. وقيل: هو مذاكرة ذلك مع النساء.

ولا يصخبْ: الصَّخَب: الصِّياحُ واختلاطُ الأصوات، ويقال بالسين والصاد.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٥/ ٥٨).

وخُلوفُ فمِ الصائم -بضم الخاء-: هو ما يخلف بعد الطعام في الفم من ريحٍ كريهة).

• الشرح •

قَوْلُهُ: **(فضل الصيام)**. الصيام من القُرب العظيمة والطاعات الجليلة، كما أنه سرٌّ بين الصائم وبين ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقد حثَّ النبي ﷺ على الصوم وبيَّن عظيم أجره، وما فيه من تكفير للذنوب، ورفعة للدرجات، وفي هذا الباب جاءت أحاديث كثيرة عن نبينا ﷺ ساق المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ طرفًا منها، غير أنَّ هذا الحديث يعتبر من أجمع الأحاديث المروية عن نبينا ﷺ في ذكر فضل الصيام وفوائده؛ فإنه جامع لفضائل عظيمة، وفوائد كثيرة، يجنيها الصائمون من صيامهم، وهو حديث قدسي يرويه النبي ﷺ عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حيث قال ﷺ: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ**». أي: جميع أعمال ابن ادم، «**لَهُ**» أي: لابن آدم، «**إِلَّا الصِّيَامَ**»، أي: باستثناء الصيام، وما أعظمها من فضيلة! وما أكبر شأنها! حيث اختص الله الصيام من بين سائر الطاعات بقوله: «**إِلَّا الصِّيَامَ، فإنه لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»، العبادات كلها يجازي الله بها ويثيب عليها صاحبها، لكن للصيام خصوصية عظيمة، ومكانة رفيعة، وثواب مضاعف، ولهذا جاء في رواية أخرى لهذا الحديث عند مسلم بلفظ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**»[1]، والمقصود أن

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥١).

جميع أعمال العبد وطاعاته المتنوعة مضاعفٌ الثواب فيها؛ بحيث تكون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلَّا الصوم فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنه: «**فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**».

قيل: إن سبب اختصاص الصيام بجعل المضاعفة فيه فوق مضاعفة سائر الأعمال بأضعاف كثيرة وبغير حساب؛ لأن الصيام صبر عظيم، والصابر يوفى أجره بغير حساب، وقد جمع الصيام أنواع الصبر الثلاثة، بل صحَّ عن النبي ﷺ أنه سمى شهر الصيام شهر الصبر؛ لما بينهما من صلة وثيقة، حيث قال ﷺ: «**صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، صَوْمُ الدَّهْرِ**»[1]، فسماه النبي ﷺ شهر الصبر؛ لأن الصيام فيه الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، والصبر على أقداره تَبَارَكَ وَتَعَالَى المؤلمة، إضافة لما فيه من تهذيب للنفوس وتقوية للإيمان وتحقيق للتقوى، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وهذا الحديث جمع بين الحديث القدسي والحديث النبوي، فقد ذكر النبي ﷺ فيه من كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وهو الحديث القدسي، وذكر أيضًا فيه من كلامه ﷺ مما يبلغه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (**وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ**). هذه ثمرة عظيمة من ثمار الصيام، وفائدة كبيرة من فوائده الجليلة، وهي كونه جُنة، أي: وقايةً وسترًا، فالصيام جُنَّة للصائم من الآثام والذنوب، وجنة له من النار وسخط الجبار، وكل من الأمرين مترتب على الآخر؛ فإن اتقاء العبد للذنوب ومباعدته عنها واجتنابه لها، موجب لوقايته من النار وسلامته من سخط الجبار،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٠٧٩)، والنسائي (٤/ ٢١٨)، وأحمد (٧٥٧٧)، وابن حبان (٣٦٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧١٨).

فالصيام جنة له من الذنوب؛ لما فيه من تزكية للقلب، وتهذيب للنفس، وتربية على الفضائل، ومعونة للنفس على البعد عن الرذائل، كما أن الصيام جنة من النار، وهو من أسباب المباعدة عنها كما قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا بَاعَدَ اللهُ، بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا**»[١]، ولهذا المعنى قال النبي ﷺ موجهًا الشباب: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»، أي: واقٍ من الوقوع في المحرمات.

وما في الصيام من تهذيب وتزكية وتطييب للقلوب أعظم واقٍ للعبد من اقتراف الذنوب وارتكابها، لا سيما من يصوم ويفقه الصيام ويعمل على تحقيق ما في الصيام من تربية النفس، فإنه إذا صام يومًا عن طعامه وشرابه وشهوته قربة لربه وطاعة لمولاه رجاء ثوابه وخوفًا من عقابه، فإن صيامه هذا يعينه على الصيام الدائم الذي لا يختص بنهار ولا ليل، ولا يختص بشهر دون شهر، أو يوم دون يوم، وإنما هو صيام دائم مطلوب من المسلم في لياليه وأيامه وشهوره وأعوامه وأوقاته كلها إلى أن يتوفاه الله، وهو الصيام عن المحرمات، وهذا الصيام واجب ومستمر ودائم، فهناك صيام للسمع والبصر واليد والقدم واللسان، فمطلوب من العبد أن يصوم لسانه عن الكلام المحرم، وقدمه عن المشي إلى الحرام، وبصره عن الحرام، وسمعه عن الحرام.

والصيام -فرضه ونفله- عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الشمس إلى غروبها؛ معونة للعبد على هذا الصيام الدائم؛ لأنه يمرن النفس ويدربها على لزوم طاعة الله، والانتهاء عما حرم الله، وقد دلَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

على ذلك هذا الحديث حيث قال ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإذا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**». هذا فيه التنبيه على ما في الصيام من التهذيب والتربية، وأن الصائم ينبغي عليه أن يهتم أثناء صيامه بتهذيب نفسه، وتمرينها على الفضائل وترك المحرمات.

قَوْلُهُ: (**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**). أي: إن بدأه أحد بالمسابة واللعن والشتم أو المقاتلة والاعتداء، فليدفعه بهذه الكلمة، فليقل: «**إني صائم**»، وقول هذه الكلمة في هذا المقام مفيد من جهتين:

الأولى: أنه مفيد للصائم نفسه، فهو يذكر نفسه أنه في صيام، وأن الصيام مقام رفيع، أرفع من أن يخوض وهو صائم في مخاصمة ومقاتلة.

الثانية: أنه مفيد لهذا الذي يقاتله، كأنه يذكره بهذه العبادة، وشرفها؛ ليحترمها، ويبعد عن أذية من هو مشتغل بها.

قَوْلُهُ: (**وَالَّـذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ -تعالى- يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**). يقسم نبينا ﷺ بالله مبينًا فضيلة من فضائل الصيام، وخلوف فم الصائم: هو الرائحة الكريهة التي تنبعث من جوفه ومن فمه، ولا سيما آخر النهار، وهذه الرائحة مستكرهة عند الناس، لكنها أطيب عند الله من ريح المسك؛ لأن هذه الرائحة تولدت من عبادة عظيمة، فهذا الأثر الذي ترتب وتولد عن هذه العبادة الجليلة، شأنه عند الله -كما أخبر ﷺ وأقسم بالله- أنه أطيب عند الله من ريح المسك.

قَوْلُهُ: (**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إذا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإذا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ**). دلَّ هذا على أن الصائم له فرحتان: فرحة في الدنيا،

وفرحة في الأخرة، الفرحة التي في الدنيا تكون عقب الصيام، فيفرح بأنه أتم هذه العبادة وأكملها وجاء بها تامة، ثم أفطر على رزق الله فيفرح كذلك بفطره، إذًا فرح الصائم بفطره يكون لأمرين:

الأول: لإتمام العبادة التي وفقه الله لإتمامها وإكمالها.

الثاني: لتناوله هذا الذي أباحه الله له على إثر صيامه، وقد اشتد به العطش والجوع، وهو صابر محتسب، فاذا أفطر يفرح بفطره.

وأما الفرح الأخروي فهو الفرح يوم يلقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فينال على صيامه الأجر العظيم والثواب الجزيل.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذلك شرحًا لبعض ألفاظ الحديث حيث قال:

قَوْلُهُ: **(فلا يرفث: -بضم الفاء وكسرها- أي: لا يأتي برفث الكلام وفحشه)**. المراد: أن على الصائم أن يبتعد وقت الصيام عن الكلام الفاحش والبذيء، والبعد عن الفحش والبذاءة مطلوب من المسلم أن يجتنبه في كل حين، لكن الأمر في الصيام أعظم، والاجتناب في الصيام أوثق وأوكد.

قَوْلُهُ: **(قال الأزهري)**. الأزهري هو صاحب كتاب تهذيب اللغة، وهو من أحسن الكتب وأجودها في هذا الباب، وصاحبه إضافة لإمامته في اللغة، صاحبُ سنة وسلامة في المعتقد.

قَوْلُهُ: **(الرفث: هي كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة)**. أي: الجماع ومقدمات الجماع.

قَوْلُهُ: **(ويكون الرفث: الجماع)**. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قَوْلُهُ: (**ويكون: ذكر الجماع والحديث به**). جاء في بعض الطبعات: «**ويكون ذلك الجماع**». وهو تصحيف مطبعي.

قَوْلُهُ: (**وقيل: هو مذاكرة ذلك مع النساء**). أي: مذاكرة المرء ذلك مع أهله، وهذه المذاكرة له تهيجه وتثيره، فهذا مجمل ما قيل في معنى الرفث.

قَوْلُهُ: (**ولا يصخب: الصخب: الصياح واختلاط الأصوات. ويقال بالسين والصاد**). اللجج والأصوات العالية، كما أنه منهي عنه في كل وقت، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، إلا أنه في وقت الصيام أشد نكارة، وقوله: «**لا يصخب، يقال بالسين والصاد**». أي: لا يسخب ولا يصخب، ولفظ الحديث في مسلم بالسين: «**لَا يَسْخَبْ**»(١).

قَوْلُهُ: (**وخلوف فم الصائم -بضم الخاء-: هو ما يخلف بعد الطعام في الفم من ريح كريهة**). هذه الرائحة مستقذرة عند الناس، وقد مر في ذكر ثوابها أنها أطيب عند الله من ريح المسك. ◈

(**روى سَهْل بن سَعْدٍ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ إلا الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ معهم أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإذا أُدخِلَ آخِرُهُمْ، أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**». **متفق عليه**(٢).

قوله: باب الرَّيان، واختصاص الصائمين به، قيل: هو مشتق من الرِّيِّ لما ينالُ الصائم من العَطَش، فسُمِّي هذا البابُ بما أعدَّ فيه من النعيم

(١) أخرجه مسلم (١١٥١).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢).

المجازى به على الصوم).

• الشرح •

قَوْلُهُ: **(إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ إلا الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ معهم أَحَدٌ غَيْرُهُمْ)**. هذا الحديث قد اشتمل على أسلوب التشويق؛ فقد عرَّفهم أولًا أن في الجنة بابًا يقال له: الريان، وما من شك أن السامع الناصح لنفسه إذا سمع ذلك تشوَّقت نفسه إلى معرفة موجب الدخول من هذا الباب، الذي لا يدخل منه إلَّا الصائمون، وقد أكد النبي ﷺ اختصاصه بهم مرتين، فقد قال: «**لا يدخل منه إلا الصائمون**». ثم قال: «**لا يدخل معهم أحد غيرهم**». وهذا تأكيد للمعنى الأول، أنه باب خاص بهم.

قَوْلُهُ: **(يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ)**. أي: يدعون للدخول من هذا الباب.

قَوْلُهُ: **(فَإذا أُدخِلَ آخِرُهُمْ، أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ)**. ولفظ البخاري: «**فإذا دخلوا أغلق**». وهذا فيه تأكيد اختصاص هذا الباب بالصائمين.

(قوله: باب الريان واختصاص الصائمين به، قيل: هو مشتق من الرِّيّ؛ لما ينالُ الصائم من العطش، فسمي هذا الباب بما أعدَّ فيه من النعيم المُجازى به على الصوم). هذا جزاء من جنس العمل؛ فكما أنه عطّش نفسه في صيامه، طلبًا لمرضاة ربه، جازاه الله من جنس عمله، فأدخله من هذا الباب المبارك، جعلنا الله -بمنه وكرمه- من الداخلين من هذا الباب.

(وروى أبو سعيدٍ الخُدريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ -تعالى-، إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا». متفق عليه[1].**

والخريف: السنة).

• الشرح •

ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب فضائل الصيام بحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد اشتمل على فضيلة للصيام وما أعظمها! وهي: أن صيام يوم في سبيل الله يباعد وجه الصائم عن النار سبعين خريفًا، وتخصيص الوجه بالذكر؛ لشرف الوجه، وإذا حصلت المباعدة للوجه، فهي حاصلة للبدن، لكن خُصَّ الوجه بالذكر لشرفه.

قَوْلُهُ: (فِي سَبِيلِ اللهِ). اختلف أهل العلم في المراد بقوله: «**في سبيل الله**»، فمن أهل العلم من قال: أن المراد بقوله: «**في سبيل الله**». أي: الجهاد. والمعنى أن من صام يومًا في الجهاد في سبيل الله، ولهذا أورده الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (الصحيح) في كتاب الجهاد[2].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو محمولٌ على من لا يتضرر به، ولا يفوت به حقًّا، ولا يختلُّ به قتاله ولا غيره من مهمات غزوه»[3].

والقول الآخر: أن المراد بقوله: «**فِي سَبِيلِ اللهِ**» أي: في طاعة الله،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» رقم (٢٨٤٠).

(٣) شرح صحيح مسلم (٨/ ٣٣).

والتقرب إليه وطلب ثوابه.

وممن قوى هذا القول: الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في «شرحه لعمدة الأحكام»[١].

قَوْلُهُ: **(سَبْعِينَ خَرِيفًا)**: أي سبعين سنة، أي: يباعد وجهه عن النار سبعين سنة.

وهل للعدد مفهوم أم لا مفهوم له ويراد به التكثير؟ أي: باعده مباعدة شديدة عن النار؟

من أهل العلم من قال: هذا العدد له مفهوم، أي: له مراد، ومنهم من قال: لا مفهوم له، وإنما المراد به: التكثير، ولا سيما هذا العدد: السبعون، والسبعمائة ونحو ذلك، يكثر ذكره عند العرب، مرادًا به التكثير، ومنه قول الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]. ◈

ما جاء في صوم المحرم

روى أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: **«أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّم». انفرد به مسلم**[٢].

• الشرح •

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يتعلق بفضائل الصيام عمومًا، شرع بذكر

(١) انظر: «الإفهام في شرح عمدة الأحكام» لابن باز (١/ ٤٢٩).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣).

صيام التطوع، وتفاضل الصيام، وأن الصيام ليس على رتبة واحدة، بل بعضه أفضل من بعض، وأفضل الصيام صيام رمضان، وما تقرب متقرب بشيء أحب إلى الله مما افترض، كما في الحديث القدسي، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[1].

وصيام النفل من ذلك، وقد جاءت السنة بأنواع منه، سواء ما يتعلق منها بأيام في الأسبوع، أو ما يتعلق ببعض الأيام من السنة، وهذا التطوع ليس على رتبة واحدة؛ بل بعضه أفضل من بعض، وبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بما جاء في صيام المحرم، وأورد حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي جاء فيه أنَّ صيام شهر الله المحرم هو أفضل صيام التطوع، كما أن صلاة الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة، والمحرم لا يصام كاملًا بل إنَّ النبي ﷺ كما صح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «**وَمَا رَأَيْتُهُ صَامَ شَهْرًا كَامِلًا، مُنْذُ قَدِمَ المدِينَةَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَمَضَانَ**»[2]، لكن شهر الله المحرم يستحب الإكثار فيه من الصيام، والصيام فيه أحب الصيام إلى الله بعد رمضان.

ما جاء في صيام عاشوراء

(سُئل عبد الله بنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن صيامِ يومِ عاشوراءَ؟ فقال: «مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ -يعني: يومَ عاشوراءَ- وَلَا شَهْرًا إِلَّا هَذَا الشَّهْرَ -يعني: رمضان-» متفق عليه**[3]**).**

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).
(٢) أخرجه مسلم (١١٥٦).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٠٦)، ومسلم (١١٣٢).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا ما يتعلق بصيام عاشوراء، الذي هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، وقد جاء فيه ثواب عظيم، وفضل جزيل، وصيامه صيام شكر لله؛ لأن الله أنجى في هذا اليوم العظيم موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه، أهلكهم مع كثرة عددهم وعدتهم، هلاك نفس واحدة، أغرقهم أجمعين، فصامه موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ شكرًا لله، ثم صامه نبينا ﷺ شكرًا لله، فصيام يوم عاشوراء هو شكر لله على هذه النعمة العظيمة، وقال النبي ﷺ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ**»[1]. أي: أحق بموسى من اليهود.

قَوْلُهُ: (**مَا عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَامَ يَوْمًا يَطْلُبُ فَضْلَهُ عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا هَذَا الْيَوْمَ -يعني يوم عاشوراء-**). هذا يدل على مكانة صيام هذا اليوم، وقد ورد في فضل صيامه أحاديث عديدة عن النبي ﷺ، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**»[2]. أي: مع العاشر، أما العاشر؛ لأجل فضيلته، شكرًا لله، وأما التاسع؛ لأجل مخالفة اليهود.

(روى أبو قتادة الأنصاريُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ سئل عن صومه؟ فذكر الحديث إلى قوله: وسئل عن صوم يوم عاشوراءَ فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ». انفرد به مسلم[3]).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٤)، ومسلم (١١٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٣).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسيأتي الحديث بتمامه، وقد اقتصر هنا على موضع الشاهد منه وهو: فضل صيام يوم عاشوراء، فإن النبي ﷺ لما سئل عن فضله قال: «**يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ**»، يعني: يكفر الذنوب التي كانت في السنة الماضية، والمقصود بالذنوب هنا: الصغائر دون الكبائر؛ لأن الكبائر لا بد فيها من توبة، فقد قال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ؛ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»(١). ومن المعلوم أن صيام رمضان أفضل من صيام التطوع، ومع عظمه بين أن التكفير الذي يكون بصيام رمضان إنما هو باجتناب الكبائر، أي: أن الكبائر لا بد فيها من توبة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. ◈

ما جاء في صيام شعبان

(روت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ» متفق عليه(٢).

وفي مسلمٍ قالت عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «وَلَمْ أَرَهُ صَائِمًا مِنْ شَهْرٍ قَطُّ، أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِهِ في شَعْبَانَ؛ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ، كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦).

قَلِيلًا»[(١)]).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا ما يتعلق بصيام شعبان، وهو الشهر الذي يسبق شهر رمضان، وكان النبي ﷺ يكثر من الصيام فيه.

قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لَا يَصُومُ**). هذه إشارة منها إلى أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان صيامه وفطره معتدلًا، أي: يصوم حتى يُظن أنه لا يفطر، ويفطر حتى يُظن أنه لا يصوم، وأشار إلى هذا المعنى النبي ﷺ فقال عندما تقالَّ نفرٌ عبادته: «**لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ**»[(٢)]. أي: أن صومه وفطره معتدل.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ**). إشارة إلى كثرة الأيام التي يصومها في شعبان.

وقولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا**). أي: أنه ﷺ يترك بعض الأيام من شعبان لا يصومها؛ لأنه لم يستكمل صيام شهر قط إلا صيام رمضان.

وهذا الحديث لا يعارض الحديث الذي مر معنا وهو: أنَّ أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم، فإكثاره من الصيام في شهر شعبان، لا يعارض كون أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم، وقد ذكر أهل العلم توجيهات في الجمع بين الحديثين، ومنهم

---

(١) أخرجه مسلم (١١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح صحيح مسلم)[١] ذكر توجيهين:

الأول: قال: لعل النبي ﷺ لم يكن يعلم بهذا الفضل المتعلق بشهر محرم، ثم أخبر به بعد أن كان يكثر من صيام شهر شعبان.

الثاني: لعل ثمة مانعًا حصل للنبي ﷺ من جهاد أو مرض لم يتمكن بسببه من الإكثار من الصيام في شهر الله المحرم، لكنه أخبر أنَّ الصيام في شهر الله المحرم أفضل الصيام بعد رمضان.

(وروى عمران بن حُصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجل: «هل صُمْتَ مِنْ سَرَرِ هَذَا الشَّهْرِ شيئًا؟» -يعني شعبان- قال: لا، فقال رسولُ الله ﷺ: «فَإذا أَفْطَرْتَ من رمضان، فَصُمْ يَوْمَيْنِ مَكَانَه». متفق عليه[٢].

سَرَرُ الشهر: سِرَارُهُ، قال الفراء: الفتح أجْودُ، وسَرَرُهُ: ثلاث لغات[٣].

قال أبو عُبيد: سِرَارُ الشهر آخرُهُ[٤]. وقال غيرُه: هو وسطه. وقيل: آخِرهُ[٥]).

• الشرح •

قول النبي ﷺ للرجل: «**صُمْتَ مِنْ سَرَرِ هَذَا الشَّهْرِ شيئًا؟**»، أي: شعبان، المراد بسرر الشهر آخر الشهر، ومعلوم أنَّ النبي ﷺ نهى

---

(١) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٨/ ٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٨٣)، ومسلم (١١٦١).
(٣) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (٤/ ٣٥٧).
(٤) انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ٧٩).
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» لأبي منصور الهروي (١٢/ ٢٠١)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٣٥٩).

أن يتقدم رمضان بصيام يوم أو يومين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذَلِكَ اليَوْمَ**»[1]، وذلك على سبيل التحري والاحتياط لرمضان، أما من كان له صيام فإنه يصومه، مثل الذي من عادته أن يصوم كل اثنين ووافق الاثنين آخر شعبان، أو كان من عادته الإكثار من الصيام في شعبان، فإنه يصوم للعادة التي كان يصومها، أما من صام للاحتياط لرمضان، فإنه لا يجوز له، وهو مخالف لهديه ﷺ.

قَوْلُهُ: (**فَإذا أَفْطَرْتَ من رمضان، فَصُمْ يَوْمَيْنِ مَكَانَه**). أخذ منه العلماء مشروعية قضاء التطوع إذا تركه المرء ولم يتمكن من القيام به، وقد حمل العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ هذا الحديث على من كانت له عادة، وأن هذا الرجل كانت له عادة أن يصوم ذلك الوقت، فتركه في ذلك الشهر، فأرشده النبي ﷺ إلى قضاء هذا الذي تركه وقد اعتاد على صيامه بعد شهر رمضان؛ ليكون مداومًا على ما مضى عليه من النوافل والسنن.

وبين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ما يتعلق بسرر الشهر الذي جاء في الحديث فقال: (**سَرَر الشهر: سِرَاره**). بفتح السين، وكسر السين، قال الفراء: الفتح أجود، وبين أيضا أن سَرر الشهر أو سِرار الشهر يطلق ويراد به: آخره، وقيل: وسطه، لكن الأظهر أن سَرر الشهر أو سِراره هو: آخر الشهر، سمي بهذا لاستسرار القمر فيه، يعني استتاره، وهي ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين وثلاثين، وهو قول الجمهور من أهل اللغة والغريب والحديث. ◈

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٤)، ومسلم (١٠٨٢).

ما جاء في صيام رمضان

(روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ». متفق عليه[1].

وقوله: صُفِّدت الشياطين أي: غُلّتْ وأوثقتْ بأغلال الحديد).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما جاء في صيام رمضان). أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا ما يتعلق بصيام شهر رمضان، وحَقُّ ذلك أن يقدم على صيام التطوع، لكن ذكره في أثناء كلامه على الأحاديث الواردة في صيام التطوع، وربما -والله تعالى أعلم- أنه راعى ترتيب الشهور: محرم ثم شعبان ثم رمضان ثم شوال ثم ذي الحجة، ومع ذلك فالأولى تقديم رمضان على غيره، لكن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ راعى ترتيب الشهور.

وهذا الحديث أورده في فضل رمضان ويشتمل على ثلاث فضائل لهذا الشهر:

الأولى: تفتح فيه أبواب الجنة الثمانية، فلا يغلق منها باب.

الثانية: تغلق أبواب النار السبعة، فلا يفتح منها باب؛ وهذا فيه دلالة على ما يكون في رمضان من طاعات زاكية، وعبادات عظيمة، وإقبال على طاعة الله وبعد عن المعاصي والذنوب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩).

الثالثة: تصفيد الشياطين، أي: إيثاقها بأغلال الحديد، وتصفيدها يحبسها ويمنعها من أن تخلص إلى ما كانت تخلص إليه في غير رمضان، لكن الموثق بحديد قد يحصل منه شيء من الأذى، وهذا المعنى ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «الموثق بالحديد قد يحصل منه بعض الشيء، لكنه لا يتمكن من أن يخلص إلى ما كان يخلص إليه قبل إيثاقه بالحديد»[١].

الحاصل أنَّ من فضائل رمضان أن الشياطين تُصفد فلا تتمكن من أن تخلص إلى ما كانت تخلص إليه في غير رمضان، لكن تبقى النفس الأمارة تعمل عملها، ويبقى أيضًا خدم الشياطين وأعوانهم، ممن يعملون على إضاعة أوقات الناس في رمضان في الحرام والآثام، ولهذا فإن بعض أعوان الشياطين يعدون إعدادًا مسبقًا لأمور في رمضان يضيعون بها أوقات المسلمين في الحرام والآثام وتقويته في نفوسهم.

فالمقصود أن رمضان إذا أقبل فعلى المسلم أن يغتنم رمضان اغتنامًا عظيمًا، وأن يسعى لنيل الجنة؛ فأبوابها فيه تفتح، والنجاة من النار؛ فأبوابها فيه تغلق، والخلاصِ من الشياطين فإنها تصفد في رمضان، فيكون رمضان بالنسبة للمسلم بابًا عظيما لغفران الذنوب، ورضوان الله، وتحقيق تقوى الله، وحسن الإقبال عليه.

(وروى أبو هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال: قال رسولُ الله** ﷺ: **«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». متفق عليه[٢]).**

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٥/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٥٩).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**إِيمَانًا**). أي: إيمانا بالله، وبوعده العظيم، وما أعده لعباده المتقين.

قَوْلُهُ: (**وَاحْتِسَابًا**). أي: احتسابًا للأجر والثواب، يرجو بصيام رمضان ثواب الله، والنجاة من النار، والفوز بالجنة، ونيل رضا الله.

قَوْلُهُ: (**غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**). المراد بالذنوب هنا: الصغائر دون الكبائر؛ لأن الكبائر لا بد لها من توبة، وقد مرَّ معنا قول النبي ﷺ: «**الصَّلَواتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»(١).

ما جاء في صيام ستة أيام من شوال

(روى أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ». انفرد به مسلم(٢)).

• الشرح •

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث الذي يتعلق بفضل صيام ستة أيام من شوال، وهو حديث صحيح ثابت عن الرسول ﷺ، ولا يلتفت إلى تشكيك من شكك في ثبوته، وفيه هذه الفضيلة العظيمة، ولا يشترط في هذه الأيام

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٤).

الست أن يأتي بها المسلم متتابعة متوالية، بل لو صامها متفرقة في أوله أو وسطه أو آخره فلا بأس؛ إذ المهم أن يقع صيام هذه الأيام في شوال.

وذكر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الثواب العظيم، وذلك أن الحسنة بعشر أمثالها، فالسنة ثلاثمائة وستون يومًا، فصيام رمضان يعدل ثلاثمائة يوم؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وصيام ست من شوال يعدل ستين يومًا؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

وقَوْلُهُ: (**كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ**). أي: لو أن المرء قضى كل سنواته على هذه الصفة، يصوم رمضان ويتبعه ستًّا من شوال، فيكون بذلك كأنما صام الدهر.

ما جاء في العمل في عشر ذي الحجة

(روى ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِن أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إلى الله -تعالى- مِنْ هَذِهِ الأيامِ العشرِ»، فقالوا: يا رسولَ الله! ولا الجهادُ في سبيلِ الله تعالى؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «وَلاَ الجِهَادُ في سبيل الله -تعالى-، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ من ذلك بِشَيْءٍ». أخرجه البخاري[1]).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا حديثًا عامًّا في فضل العمل الصالح عمومًا في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، وإيراده ذلك في باب

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩).

فضل الصيام؛ لأن من جملة العمل الصالح الذي يندب إلى فعله في هذه العشر الصيام؛ لأنَّ النبي ﷺ عمم فقال: (**مَا مِن أَيَّـامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَنَّ أَحَبُّ إلى الله -تعالى- مِنْ هَذِهِ الأيامِ العشرِ**). فمن جملة الأعمال الصالحة: الصيام.

والعشر الأول من شهر ذي الحجة أيامها خير الأيام، كما أن العشر الأواخر من رمضان هي خير الليالي، فخير أيام السنة العشر الأول من ذي الحجة، وخير ليالي السنة العشر الأواخر من رمضان، وفي العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر وهي خير من ألف شهر، وفي العشر الأوائل من ذي الحجة يوم عرفة، وهو سيد الأيام وخيرها وأفضلها.

فالحاصل أنَّ العشر الأول من ذي الحجة أيام فاضلة وعظيمة ومباركة، وهي خير أيام العمل الصالح، وينبغي للمسلم إذا وُفِّق لإدراكها، أن يستغلها بالعمل الصالح.

وهذا اللفظ الذي ساقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو لفظ الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «جامعه»[1]، أما لفظ البخاري فهو: «**مَا العَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ؟» قَالُوا: وَلاَ الجِهَادُ؟ قَالَ: «وَلا الجِهَادُ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**». والحديث دلَّ دلالة ظاهرة على فضل هذه العشر وعظم شأنها، وأنها خير أيام العمل الصالح، وأن المسلم عليه أن يحرص على الأعمال الصالحة فيها، ومن جملتها الصيام؛ ولأجل هذا أورده المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأبواب المتعلقة بفضائل الصيام. ◈

(١) أخرجه الترمذي (٧٥٧).

ما جاء في صيام يوم عرفة وثلاثة أيام من كل شهر ويوم الاثنين

(روى أبو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ، سُئِلَ عَنْ صَوْمِهِ؟ قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِبَيْعَتِنَا بَيْعَةً. قَالَ: فَسُئِلَ عَنْ صِيَامِ الدَّهْرِ؟ فَقَالَ: «لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ -أَوْ مَا صَامَ وَمَا أَفْطَرَ-» قَالَ: فَسُئِلَ عَنْ صيام يَوْمَيْنِ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ؟ قَالَ: «وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟»، قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ، وَإِفْطَارِ يومين. قال: لَيتَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قوانا لذلك قال: وسئل عن صوم يوم وإفطار يَوْمٍ؟ قَالَ: «ذَاكَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ»، قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ؟ فقَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ» قَالَ: فَقَالَ: «فَصَوْمُ ثَلَاثَة أيامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، صَوْمُ الدَّهْرِ»]قال: وسئل عن صوم يوم عرفة فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية»[(١) قَالَ: وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الماضية». انفرد به مسلم(٢)).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما جاء في صيام يوم عرفة، وثلاثة أيام من كل شهر ويوم الاثنين). عقد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الترجمة المشتملة على جملة من الفضائل جمعها حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل صيام يوم عاشوراء،

---

(١) ساقط من الأصل وأضيف من صحيح مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢).

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وصيام يوم الاثنين، وغيرها من الفضائل المتعلقة بالصيام.

قَوْلُهُ: (**أن رسـول الله ﷺ، سُئِلَ عَـنْ صَـوْمِـهِ؟ قَـالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**). غضبه ﷺ عن كراهية لهذه المسألة، وهو سؤاله عن صيامه؛ لأن باب الصيام باب منافسة، والناس يتفاوتون فيه تفاوتًا عظيمًا، وكان الأولى في مثل هذا المقام، أن يكون السؤال كم أصوم؟ ويجيبه بما يناسب حاله؛ لأن باب الصيام باب واسع، والنبي ﷺ يطيق من الصيام ما لا تطيق أمته ﷺ، وفي الحديث: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي، وَسَاقٍ يَسْقِينِ**»[1].

قَوْلُهُ: (**فَقَالَ عُمَرُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِبَيْعَتِنَا بَيْعَةً**). هذه كلمات عظيمة جامعة جمعت الدين كله؛ لأن الدين يقوم على هذه الثلاثة التي ذكرها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن هذه الثلاثة يُسأَلُ كل إنسان اذا أدرج في قبره، ويفوز بصحة الجواب عن هذا السؤال أهل الرضا في هذه الحياة الدنيا: بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا، ويشرع للمسلم أن يقولها بعد أن يقول المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، مجددًا إيمانه ورضاه بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا، ويشرع أن يقولها في الصباح والمساء ثلاث مرات، وفيها ألف الإمام المجدد المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ رسالته العظيمة (الأصول الثلاثة).

قَوْلُهُ: (**فَسُئِلَ عَنْ صِيَامِ الدَّهْرِ؟ فَقَالَ: لَا صَامَ وَلَا أَفْطَرَ -أَوْ مَا**

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٣).

صَامَ وَمَا أَفْطَرَ-). هذا شك من الراوي، والمراد: أن من يصوم الدهر لم يحصل له ثواب الصيام لمخالفة هدي النبي ﷺ، وفي مثل هذا المقام قال: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[(١)]، فلم يحصل أجر الصوم لأجل المخالفة، وما أفطر؛ لأنه أمسك عن الطعام، فليس هو بالمفطر، وليس هو بالمحصل أجر الصيام؛ لأجل مخالفته.

قَوْلُهُ: (**فَسُئِلَ عَنْ صيام يَوْمَيْنِ وَإِفْطَارِ يَوْمٍ؟ قَالَ: «وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟»**). كأنه كرهه لأنه مما يُعجز عنه في الغالب وفيه مشقة عظيمة، وبخاصة مع الاستمرار عليه، أما كونه يطاق في شهر أو شهرين ونحو ذلك فهذا متيسر.

قَوْلُهُ: (**وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ، وَإِفْطَارِ يومين؟**). أي: يصوم عشرة أيام من الشهر وهذا ثلث الدهر.

قَوْلُهُ: (**قال: ليت أنَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **قوانا لذلك**). وفي رواية: «**وددت أني طوقت ذلـك**»[(٢)]. قيل معناه: لانشغاله بأهله وضيوفه ومصالح الأمة، وقيل: إن المقصود بذلك أمته.

قَوْلُهُ: (**قال: وسُئل عن صومِ يوم وإفطار يَوْمٍ؟ قَالَ: «ذَاكَ صَوْمُ أَخِي دَاوُدَ»**). وهو أعدل الصيام وأحبه إلى الله؛ قال ﷺ: «**أحب الصيام إلى الله صيام داود**»[(٣)].

قَوْلُهُ: (**وَسُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ؟ فقَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢).
(٣) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

وَيَوْمٌ بُعِثْتُ وأُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ). هذا فيه فضل صيام يوم الاثنين من كل أسبوع، فهو يوم ولد فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويوم أُنزل عليه الوحي فيه، ويوم بعثه الله فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: (فَصَوْمُ ثَلَاثَة أيامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، صَوْمُ الدَّهْرِ). وهذا فيه فضيلة المواظبة على صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ولا يشترط أن يؤتى بها مجتمعة، فلو صامها متفرقة أو صامها في أول الشهر أو وسطه أو آخره حصل فضيلة صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وسيأتي بيان هذا في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقوله: «**صَوْمُ الدَّهْرِ**»؛ لأن من يصوم ثلاثة أيام من كل شهر فإن الحسنة بعشر أمثالها، ومن صام رمضان مع الثلاثة أيام من كل شهر، فكأنما صام الدهر كله، كأن حياته كلها أمضاها صائمًا، وهذا من فضل الله.

قَوْلُهُ: (وسئل عن صوم يوم عرفة فقال: «يُكفر السنة الماضية والباقية»). أي: ذنوب سنتين: الماضية وهي التي انتهت؛ لأنَّ يوم عرفة في آخر شهر من السنة، **والباقية**. أي: التي تليها.

قَوْلُهُ: (قال: فسئل عن صوم عاشوراء فقال: «يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ»). يوم عاشوراء: هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، وذكر فيه هذا الفضل العظيم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي أن يُعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها.

وهذا العمل الكامل هو الذي يُكفر تكفيرًا كاملًا، والناقص بحسبه.

وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما:

تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده من نقص حظه من هذا الباب على الحديث الذي فيه: «**إن صوم يوم عرفة يكفر سنتين، ويوم عاشوراء يكفر سنة**».

قالوا: فإذا كان دأبه دائمًا أنه يصوم يوم عرفة، فصامه وصام يوم عاشوراء، فكيف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة؟

وأجاب بعضهم عن هذا، بأن ما فضل عن التكفير ينال به الدرجات.

ويالله العجب! فليت العبد إذا أتى بهذه المكفرات كلها أن تكفر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلى بعض.

والتكفير بهذه مشروط بشروطٍ، موقوفٌ على انتفاء موانع في العمل وخارجه؛ فإن عَلم العبدُ أنه جاء بالشروط كلِّها، وانتفت عنه الموانع كلُّها؟ فحينئذ يقع التكفير، وأمَّا عملٌ شملته الغفلة أو لأكثره، وفقد الإخلاص الذي هو روحه ولبُّه، ولم يُوف حقه، ولم يقدره حق قدره، فأي شيء يكفر هذا العمل؟!

فإن وثق العبد من عمله بأنه وفَّاه حقه الذي ينبغي له ظاهرًا وباطنًا، ولم يعرض له مانع يمنع تكفيره ولا مبطل يحبطه من عُجب، أو رؤية نفسه فيه، أو منٍّ به، أو يطلب من العباد تعظيمه به، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه، أو يعادي من لا يعظمه عليه ويرى أنه قد بخسه حقه وأنه قد استهان بحرمته؛ فهذا أي شيء يكفر؟!

ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تُحصر، وليس الشأن في العمل، إنما الشأن في حفظ العمل مما يفسده ويحبطه.

فالرياء -وإن دقَّ- محبطٌ للعمل، وهو أبواب كثيرة لا تُحصر،

وكون العمل غير مقيد باتباع السنة أيضًا موجب لكونه باطلًا، والمن به على الله تعالى بقلبه مفسد له، وكذلك المن بالصدقة والمعروف والبر والإحسان والصلة مفسد لها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التي تحبط الحسنات، وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

فحذر سبحانه المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض، وليس هذا بردة، بل معصية يحبط بها العمل وصاحبها لا يشعر بها.

فما الظن بمن قدم على قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه قولَ غيره وهديه وطريقه؟!

أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر؟!

ومن هذا قوله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»(١).

ومن هذا قول عائشة -رضي الله تعالى عنها وعن أبيها- لزيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما باع بالعينة: إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، إلا أن يتوب(٢).

وليس التبايع بالعينة ردةً، وإنما غايته أنه معصية.

فمعرفة ما يفسد الأعمال في حال وقوعها ويبطلها ويحبطها بعد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٤٨١٢).

وقوعها من أهم ما ينبغي أن يفتِش عليه العبد ويحرص على علمه ويحذره.

وقد جاء في أثر معروف: إن العبد ليعمل العمل سرًّا لله لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، فيتحدث به فينتقل من ديوان السرِّ إلى ديوان العلانية، ثم يصير في ذلك الديوان على حسب العلانية، فإن تحدث به للسمعة وطلب الجاه والمنزلة عند غير الله تعالى أبطله كما لو فعله لذلك»[(١)]. ◈

(وروت مُعَاذَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ: «أَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؟» قَالَتْ: «نَعَمْ»، فَقُلْتُ لَهَا: «مِنْ أَيِّ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟» قَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ يَصُومُ». انفرد به مسلم[(٢)].

وقد تقدم في صلاة الضحى حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: «بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ...». الحديث وهو متفق عليه[(٣)].

وحديث أبي الدرداء في ذلك وهو من أفراد مسلم[(٤)]).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث، والذي اشتمل على سؤالات معاذة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو دليل حرصها على الاتباع والاقتداء بهديه ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومثل

---

(١) الوابل الصيب (١٨-٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).
(٤) أخرجه مسلم (٧٢٢).

هذه السؤالات توضح لنا الهدف من دراسة فضائل الأعمال.

قولها: (**فَقُلْتُ لَهَا: مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟**). أي: هل يصومها في أول الشهر، أو في وسطه، أو في آخره؟ قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ أَيَّامِ الشَّهْرِ يَصُومُ**»، أي: تارة يصوم من أوله، وتارة يصوم من وسطه، وتارة يصوم من آخره.

وهل هذه الأيام الثلاثة التي يواظب ﷺ عليها غير الأيام البيض؟ فإن قيل: هي غير الأيام البيض، فمعنى هذا أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يصوم ستة أيام، وهذا لم يأت ما يدل عليه، وإنما المراد بذلك: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، سواء في أوله، أو في وسطه، أو في آخره، سواء صامها مجتمعة، أو متفرقة.

وصيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر وردت فيها فضائل كثيرة، ويؤكد هذا المعنى حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فهذه الأحاديث كلها جاء فيها فضل صيام ثلاثة أيام من كل شهر دون أن يعين هل هي في الأول، أو في الوسط، أو في آخر الشهر، لكن جاء في حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إذا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ**»[(١)]، وهذه هي الأيام البيض، وتسمى بالأيام البيض؛ لأنها أيام إبدار للقمر، واكتمال نوره.

فجاء في هذا الحديث ما يدل على فضل هذه الأيام، لكن من أراد أن يصوم الثلاثة الأيام في أول الشهر، أو وسطه، أو في آخره، فالأمر في ذلك واسع، ويكون قد أدرك فضيلة صيام هذه الأيام الثلاثة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٦١)، والنسائي (٤/ ٢٢٢)، وأحمد (٢١٤٣٧)، وصححه الألباني.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول هذه المسألة: «الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ليس فيها ذكر البيض، بل يصوم متى شاء، كما في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيحين[١]، وأبي هريرة في الصحيحين[٢]، وأبي الدرداء في مسلم[٣]، وهي أصح بكثير من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإذا صام ثلاثة أيام من كل شهر في العشر الأول، أو في العشر الأواسط، أو في العشر الأخيرة، حصل له الأجر، واذا وافق أيام البيض فذلك أفضل؛ جمعًا بين الأحاديث كلها»[٤]. ◈

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).
(٣) أخرجه مسلم (٧٢٢).
(٤) انظر: «الإفهام في شرح عمدة الأحكام» لابن باز (١/ ٤٢١-٤٢٢).



الباب الثالث
في الصدقة

[فضل الصدقة]

روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». متفق عليه[١].

• الشرح •

قَوْلُهُ: (فضل الصدقة). الصدقة: هي ما يُخرجه المرء من ماله على وجه التقرُّب لله، وطلب ثوابه، وهي من أعظم الأعمال وأجلِّها، وفي الصدقة ثواب عظيم يناله المتصدقون في دنياهم وأُخراهم، ففي دنياهم بركة في حياتهم وأموالهم، وفي أخراهم ما أعده الله لهم من عظيم الثواب وجميل المآب.

والصدقة سميت صدقة من الصِّدق؛ لأنَّ مخرجها مصدق بما وعد الله عليها من الثواب، ولأنها تدل على صدق إيمان المرء، يوضح هذا المعنى قول النبي ﷺ: «**وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ**»[٢]، أي: برهان على

(١) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

صدق المرء في إيمانه.

والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع في هذا الباب جملة من النصوص في فضلها وعظيم ثوابها عند الله، وبدأها بحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ففيه حَثٌّ على الصدقة كلَّ يوم؛ أي: أن يكون للمرء نصيب من الصدقة في كل يوم من أيامه؛ لأنَّ نزول الملكين نزولٌ يوميٌّ، ودعوة الملكين دعوةٌ يوميةٌ، فالحديث فيه حَثٌّ على الصدقة بشكل يومي.

قَوْلُهُ: **(فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا)**. أي: من ينفق من ماله فأخلفه بخيرٍ، وحُسْنِ عوض؛ ولهذا يجد المنفق بركة في ماله، كما جاء في الحديث: «**وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»[1]. ويشمل هذا النفقة على الطاعات، وعلى الأولاد، والنفقة على الضيوف، والنفقة على المساكين والفقراء، فإنَّ ما ينفقه المرء على أولاده وأهله من طعام وشراب وكسوة إذا احتسبها عند الله فإنها تدخل في الصدقة، وكذلك ما ينفقه في حاجة الفقراء والمساكين وما يبذله إحسانًا على جيرانه وإكرامًا لهم، كله تشمله النفقة التي جاء الحَثُّ عليها في الحديث.

قَوْلُهُ: **(وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا)**. أي: تلفًا في ماله، والتلف الذي يكون في المال نوعان: حسي ومعنوي.

أمَّا **الحسي**: بأن يُصَابَ ماله بجائحة؛ بأن يضيع أو يُحرق أو يُسرق أو يُعتدى عليه أو نحو ذلك.

والتلف **المعنوي**: بأن يكون المال موجودًا عنده، لكن يكون عديم البركة لا يستفيد منه.

فالتلف يشمل فقدان البركة في المال، وحصول جائحة للمال.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني.

وهذا الدعاء على الممسك يفيد أنَّ المراد بالنفقة في هذا الموطن النفقة الواجبة؛ لأنَّ النفقة نوعان: نفقة واجبة، ونفقة مستحبة، والدعاء بتلف المال لا يكون إلَّا في حق من فرَّط في ما أوجب الله عليه، أمَّا النفقة المستحبة إن حصلت من صاحبها أثيب، وإذا لم تحصل من صاحبها لم يعاقب، ولم يستحق الدعاء عليه بتلف ماله.

فالظاهر -والله أعلم- أنَّ المراد بالنفقة هنا: النفقة الواجبة، مثل: النفقة على الأهل والولد، والنفقة التي هي إخراج الزكاة الواجبة ونحو ذلك من النفقات الواجبة، فإن من يمسك عَمَّا أوجب الله عليه فإنه حقيق بهذه الدعوة اليومية من الملكين بتلف ماله.

(وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يَتَصَدَّقُ أَحَدُكُمْ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طيِّبٍ إلَّا أخَذَهَا اللهُ تَعَالَى بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أو قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أو أَعْظَمَ». متفق عليه[(١)].

الفَلُوُّ: المُهْرُ، والقِلَاصُ: فِتْيانُ الإبل، واحدها: قَلُوصٌ).

• الشرح •

قَوْلُهُ ﷺ: **(لا يَتَصَدَّقُ أَحَدُكُمْ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ)**، وفي رواية: «**لا يَتَصَدَّقُ أَحَدُكُمْ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ**». أفاد الحديث بروايتيه: أنَّ من تصدق بتمرة، أو بما يعادل التمرة من طعام أو شراب أو مال أو نحو ذلك، فلا يكون خاصًّا بالتمر، **وإنما المراد**: أن من تصدق بتمرة، أو تصدَّق بما يعادلها، **والمراد أيضًا**: أن من تصدَّق بشيء قليل فإنَّ الله

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٠)، ومسلم (١٠١٤).

يضاعفه لصاحبه، ويربيه له حتى تكون هذه التمرة الواحدة، أو ما يعادلها مثل الجبل يوم القيامة؛ لأن الله يربيها، وينميها لصاحبها.

وهذا فيه أنَّ ثواب الصدقة مضاعف، وأنَّ في الصدقة بركة، وأنها تنمو لصاحبها، ويجدها يوم القيامة أضعافًا مضاعفة، فإذا كانت التمرة الواحدة، أو ما يعادلها يجدها المرء يوم القيامة مثل الجبل، فكيف بمن يكرمه الله بأنواع من الصدقات محتسبًا طامعًا في أجر الله وعظيم ثوابه!

قَوْلُهُ: (**مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ**). هذا القيد فيه أنَّ النفقة التي ليست من كسب طيب ليست مقبولة؛ لأنَّ النبي ﷺ قال بعده: «**ولا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ**» في رواية البخاري، وبهذا القيد يجب أن تكون النفقة من كسب طيب؛ أي: دخلت عليه هذه التمرة أو غيرها من المال من طريق حلال ومباح، أمَّا لو دخلت عليه من غشٍ أو ربا أو سرقة أو غيرها من الطرق المحرمة فإنها غير طيبة، فلا تكون مُتقبَّلة؛ لأنَّ الله لا يقبل إلا الطيب.

قَوْلُهُ: (**إِلَّا أَخَذَهَا اللهُ تَعَالَى بِيَمِينِهِ**). وهذا فيه إثبات اليمين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

والقاعدة عند أهل السنة: أن نصوص الصفات تُمر كما جاءت، ويُؤْمَنُ بها كما وردت، وأن يحذر المرء من طرائق أهل التأويل، وسُبل أهل التحريف الذين يجهدون أنفسهم في لَيِّ هذه النصوص، وصرفها عن ظاهرها، وإبعادها عن معناها؛ زعمًا منهم أنهم يريدون تنزيه الله، والنبي ﷺ المتكلم بهذا هو إمام المنزهين لله عَزَّوَجَلَّ، ويكفي المسلم أن يسمع أحاديث الرسول ﷺ، وأن يؤمن بها كما جاءت، ويُمِرَّهُا كما وردت، ولا ينشغل بصرفها إلى المعاني البعيدة زعمًا منه أنه يريد

تنزيه الله، فنقول كما قال ﷺ: «**إِلَّا أَخَذَهَا بِيَمِينِهِ**»، وهذا فيه عِظم شأن الصدقة. ويجب أيضًا في هذا المقام أن يُنَزَّهَ الله عن التمثيل، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ولا يجوز أن يخطر ببال أحد أنَّها مثل صفات المخلوق، فإنَّ صفات الله المضافة إليه تليق بجلاله وعظمته، والقاعدة عند أهل العلم في هذا الباب: «أن الإضافة تقتضي التخصيص»، فما يضاف إلى الله من الصفات يخصه ويليق بكماله وجلاله، وما يضاف إلى المخلوقات من الصفات يليق بضعفهم وعجزهم ونقصهم، وتَنَزَّهَ ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن الشبيه والمثيل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

قَوْلُهُ: (فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ قَلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ).

أي: ما يزال الله عَزَّوَجَلَّ يضاعف له ثواب هذه الصدقة ويكبر حجمها حتى تكون مثل الجبل.

قَوْلُهُ: (الفَلُوُّ: المُهْرُ، والقِلَاصُ: فِتْيَانُ الإِبِلِ، وَاحِدُهَا قَلُوصٌ).

الفَلُوُّ[١]: سُمِّي فَلُوًّا من فَلْيِهِ عن أمه؛ أي: فصله عنها، ولهذا يقال له: الفَلُوُّ، ويقال له أيضًا: الفَصِيلُ؛ أي: أنه بلغ سن الفطام عن أمه، والمراد بالفَلُوِّ: الصغار من الخيل، وله عند أهل الخيل شأن عظيم، ومكانة في نفوسهم؛ لأنَّه يعدُّ لأشياء عظيمة؛ يعدُّ للدفاع ومجابهة الأعداء، فعنايتهم به أشد من عنايتهم ببهيمة الأنعام أو غيرها مما يربى

(١) فَلُوَّه: تضبط بفتح الفاء وضمها، وضم اللام، وتشديد الواو، وأيضًا تضبط: فِلْوه، بكسر الفاء، وإسكان اللام. انظر: تاج العروس (ف ل و).

عندهم، فله تربية خاصة، ولهذا خَصَّهُ النبي ﷺ بالذكر.

و**القِلَاصُ**: فِتْيان الإبل؛ أي: الصغار من الإبل، وهذه كذلك لها شأن عظيم عند أصحابها.

قَوْلُهُ: (حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ أَوْ أَعْظَمَ). «**حتى تكون**» أي: التمرة، أو ما يعادلها «**مثل الجبل**»؛ أي: يربِّيها الله له حتى يجدها صاحبها يوم القيامة مثل الجبل.

فالحاصل: أن هذا الحديث العظيم المبارك يدل على فضل الصدقة حتى لو كان الذي تصدقت به قليلًا؛ فقد قال النبي ﷺ: «**لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا**»، فلا تَحْقِرَنَّ ريالًا، أو خبزة، أو عُلبة حليب، أو تمرًا، فإذا أخرجها الإنسان بنفس طيبة، ومن كسب طيب يبتغي بها وجه الله ربَّاها الله له حتى يجدها مثل الجبل أو أعظم. ◈

(وروى حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَصَدَّقُوا؛ يُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيهَا: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ قَبِلْتُهَا، وَأَمَّا الآنَ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا» متفق عليه[١]).

• الشرح •

أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في الحَثِّ على الصدقة، واغتنام أوقات إمكانها قبل تعذرها، وهذا نوع من أنواع الحَثِّ على الصدقة؛ لاغتنام أوقات الصدقة، وكم من إنسان أَخَّرَ فُرصًا عظيمة لم يغتنمها للصدقة،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١١)، ومسلم (١٠١١).

ففاتت عليه. ذكر أحد الأفاضل أنَّ أحد الأثرياء رغَّبه شخص فاضل في بناء مسجد جامع كبير يكلف ثلاثة ملايين، فوافق على ذلك، وقال: أعدُّوا المخططات وهيؤوها؛ وأنا متكفل بإخراج هذا المال لهذا المسجد، لكن لم يباشر دفعه، وإنما استعد لدفعه فقط، ثم مرض على إثر ذلك ومات، ثم قال الفاضل لورثته: والدكم اعتمد هذا المسجد، وورَّثكم خيرًا كبيرًا، وقال لي: أنا متكفل ببنائه، وأمرني أن أُعِدَّ المخططات وهي جاهزة، فتشاور الورثة، فما أعطوه شيئًا إلا واحدًا منهم أعطاه مبلغًا قليلا، وقال: هذا مني أنا.

فاغتنام الصدقة في حالة تهيؤها للعبد هذا مطلب مهم؛ لأنها إذا تهيأت الآن قد لا تتهيأ لك غدًا، كما في أثر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تَدْرِي يا عبد الله مَاذَا يَكُونُ اسْمُكَ غَدًا»[1]. يعني: من الأحياء أم من الأموات، فاغتنام الصدقة وقت تهيؤها للعبد أمر مهم، ولا ينبغي أن يغفل عنه، وهذا الحديث فيه هذا النوع من الحَثِّ على الصدقة؛ بأن يغتنم الإنسان وقتها وفرصة تهيؤها له؛ لأنه قد يأتي عليه وقت لا تتهيأ له، بل بعض الناس يؤخر الصدقة ويكبر سِنُّهُ، ثم يصيبه شيء من الخَرَفِ، فَيَحْجُرُ أبناؤه على ماله، ويكون ماله موجودًا، ويريد أن يتصدق فلا يمكنه؛ لأنَّه حُجِرَ على ماله، وهذه لها صور كثيرة.

فالحاصل: أنَّ العبد لا ينبغي له أن يؤخر الصدقة، بل عليه المبادرة بالصدقة واغتنام وقت إمكانها قبل تعذرها، وأيضًا يحرص على أن يكون له نصيب يومي من الصدقة، وفي الوقت نفسه يحتسب عند الله ما ينفقه على أهله من طعام وشراب وملبس ومركب.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٣)، وصححه الألباني.

قَوْلُهُ: (تَصَدَّقُوا؛ يُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيهَا: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ قَبِلْتُهَا).

لاحظ أنَّ الفرق بين إمكان الصدقة، وعدم الإمكان يوم واحد، فهذا فيه حَثٌّ على الصدقة وقت إمكانها؛ لأنها إذا كانت مُمكَّنةً اليومَ قد لا تكون مُمكَّنة في الغد، فقد تعرض أسباب تحول بينك وبين الصدقة؛ فمن هذه الأسباب أنَّ نفسك تكون اليوم متشجعة ومقبلة على البذل -والنفس لها إقبال وإدبار- وفي الغد تكون شحيحة، يتذكر الإنسان المصالح والأولاد، فيشح في المال، ومنها أن المال المتوفر اليوم قد لا يكون متوفرًا غدًا، ومنها أنك قد لا تجد غدًا الفقير الذي وجدته اليوم، ومنها أنك غدًا قد تكون في عداد الأموات، إلى غير ذلك من الأسباب.

(وروى عَدِيُّ بنُ حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ، أَنَّهُ ذَكَرَ النَّارَ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، وَأَشاحَ بِوَجْهِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». متفق عليه[1].

قوله: أشاحَ: أي: جَدَّ، وانكمَش على الوَصيَّةِ باتقاء النار، وقيل: حَذَّرَ من ذلك، والمُشِيحُ: الحَذِرُ، وقيل: الهاربُ، وقيل: أَشَاحَ: أَقْبَلَ، وقيل: قبضَ وجهه، قال الحَرْبِيُّ: أحسنُ ما قيل فيه: التَّنْحِيةُ، وهو مُوافِقٌ للإعراض[2]).

أورد رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث عن عَدِيٍّ بن حاتم الطائي، وحاتم الطائي والد عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مَضْرِبَ مَثَلٍ ولا يزال في البذل والكرم والإنفاق على الضيوف، وكان يبذل في ذلك بَذْلًا عظيما، لكن لم

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢٣)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) ينظر: لسان العرب (٢/ ٥٠٠).

تكن نيته في ذلك صالحة، ولم تكن لله خالصة، ولهذا جاء في حديث: أَنْ عديًّا سَأل النَّبيَّ ﷺ عن هَذا الذي قدَّمه وَالِدُهُ منْ كرم وصدقَاتٍ وبَذلٍ أيَنْفَعُهُ؟ فقال ﷺ: «**إِنَّ أَبَاكَ أَرَادَ أَمْرًا فَأَدْرَكَهُ**»[1]. قال أهل العلم: أي: الشهرة؛ يعني: أنه كان يريد الشهرةَ بهذه الصدقات والكرم والبذل، فحصلها.

فَرْقٌ بين من ينفق الأموال الطائلة شهرة، فلا يتجاوز نصيبه من هذا المال إلا سمعة تكون له في الدنيا، وبين من ينفق ريالًا واحدًا أو ريالين أو تمرة أو تمرتين لا يبتغي بها إلا وجه الله، فيرى بركتها العظيمة في الدنيا والآخرة، فيجدها مثل الجبل كما تقدم، وذاك الذي أنفق الكثير والكثير لا يجد منه شيئًا يوم القيامة؛ لأنه لم ينفقه لوجه الله، ومثله عبد الله بن جُدعَانَ، والحديث في «صحيح مسلم»، أنه في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فسألَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النَّبيَّ ﷺ هل ذاك نافعه؟ فقال ﷺ: «**لَا ينفعه؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: ربِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»[2]. أي: لم يُرِدِ الآخرة، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩]، فمن ينفق للدنيا والسمعة والشهرة ومدح الناس، كله لا ينفعه في الآخرة، نعم قد يحصِّل شهرة وصيتًا ومدحًا، لكن لا يجد شيئًا من ذلك في صالح عمله يوم لقاء الله؛ لأنه لم ينفقه ابتغاء وجهه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (أَنَّهُ ذَكَرَ النَّارَ، فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ).
جاء في رواية في (صحيح البخاري) لهذا الحديث: أنَّ الصحابة قالوا:

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٣٢)، وأحمد (١٨٢٦٢)، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان» (١/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤).

«حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا»[١]؛ أي: كَأَنَّهَا أَمَامَهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا.

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا في معنى: «**أشاح**»، وختم بقول الحَرْبِيِّ: أحسن ما قيل فيه: التنحية، وهو موافق للإعراض، وفي اللغة: أشاح إذا نحَّى الرجل وجهه؛ أي: أعرض بوجهه، وصد بوجهه، وهذا المعنى هو الأقرب لسياق الحديث؛ أن النبي ﷺ ذكر النار، فتعوَّذ منها، وأشاح بوجهه؛ أي: نحى وجهه عن الجهة التي ينظر إليها، وأعرض عن تلك الجهة حتى قال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا»؛ يعني: في جهة معينة، فأعرض عن تلك الجهة، ثم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، والله تعالى يقول: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، وهذه النار -أعاذنا الله منها- مما تتقى به الصدقة ولو كان تمرة، أو ما يعادلها.

وعلى العبد أن لا يَتَقَالَّ شيئًا يتقي به النار من المعروف والخير والصدقات، ولو كان شيئًا قليلًا؛ فلا يحتقر شيئًا بأن يقدمه وقايةً له من النار، والصدقة كما في الحديث: «**تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ** جَلَّ وَعَلَا»[٢].

قَوْلُهُ: (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ). أي: إن لم تجدوا مالًا، أو طعامًا، أو شرابًا، أو لباسًا؛ فبكلمة طيبة، والكلمة الطيبة يدخل تحتها: الكلمة الطيبة للسائل، وليس عند الإنسان ما يعطيه فيقول له: أسأل الله أن يرزقك، ويعينك على قضاء دينك، ويغنيك من الفقر، أو إن تيسر لنا شيئًا أعطيناك، ونحو ذلك. ◈

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وقال: حديث حسن غريب.

(وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي أُحُدًا ذهَبًا تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ». متفق عليه[1]).**

• الشرح •

قَوْلُهُ: (مَا يَسُرُّنِي أنَّ لِي أُحُدًا ذهَبًا). أُحُدٌ: جبل معروف عظيم يقع شمال المدينة، وهذا الحديث جاء على نحو حديث أبي ذَرٍّ حيث قال: كُنْتُ أمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَرَّةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا جَبَلُ أُحُدٍ -يَعْنِي: صَارَ جَبْلُ أُحُدٍ أمَامَنَا- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى جَنْبِهِ يَرَى جَبَلَ أُحُدٍ: **«مَا يَسُرُّني أنَّ لي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا»**[2].

قَوْلُهُ: (تَأْتِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ). هذا فيه السرعة في البذل، وعدم التأخير.

قَوْلُهُ: (إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ). هذا يفيدنا الحَثَّ على المسارعة في سداد الدين، وأنَّ سداد الدين أولى من الصدقة، ومن مثل هذا أخذ العلماء أنَّ من تيسَّر له مال يحج ويعتمر به، وعليه دين، فسداد الدين أولى، وينبغي على المرء أن يسارع في الخلاص منه، وسداده.

وفي جوابٍ لسؤالٍ عن هذا الأمر قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان عليك دين فلا تحج؛ لأن الحج لم يجب عليك أصلًا، ولو لقيت ربك لقيته وأنت غير مفرط؛ لأنه لم يجب عليك الحج، فاحمد الله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨٩)، ومسلم (٩٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٤)، ومسلم (٩٤).

أن الله يسر لك، واعلم أن حقَّ الآدمي مبني على المشاحة. والآدمي لا يسقط شيئًا من حقه، وحق الله مبني على المسامحة، أترد فضل الله عليك؟! وتقول: أحج وعليَّ دين؟! ويبقى الدين عالقًا في ذمتك، مع أنَّ الحج ليس واجبًا عليك»[١].

وجاء في «المسند» للإمام أحمد: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**لَا تُخِيفُوا أَنْفُسَكُمْ بَعْدَ أَمْنِهَا**»، قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الدَّيْنُ**»[٢].

الدَّيْنُ ليس بالهين، فمسارعة الإنسان لقضائه، ورصدُ المال لذلك مقدمٌ على الصدقة، ولهذا قال ﷺ: «**إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ عَلَيَّ**».

وروى أبو هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإمَامُ العَادِلُ، وَشابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللهِ تَعالَى اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمالٍ، فَقالَ: إِنّي أَخَافُ اللهَ تَعَالَى، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذكَرَ اللهَ تَعالَى خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاه». متفق عليه[٣].

• الشرح •

هذا الحديثُ حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله -جعلنا الله أجمعين منهم بمنِّه وكرمه- حديثٌ عظيم مبارك، فيه

(١) الفتاوى (٢١/ ١١٧).
(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٢٠)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٢٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلم (١٠٣١).

حثٌّ على هذه الخصال العظيمة، والأوصاف المباركة الموجبة للظلال يوم القيامة، وعندما يستحضر المسلم ذلك الموقف العظيم، يوم تدنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون قيد ميل، ولا ثمة أشجار في ذلك اليوم، ولا أمكنة يُستظل بها إلا ذلك الظل العظيم المشار إليه في هذا الحديث الذي يظل الله فيه الأولياء المتقين، فإذا استحضر المسلم ذلك الموقف العظيم تحركت نفسه لمعرفة هذه الخصال الموجبة للظلال، والتحلي بها طمعًا أن يحظى في ذلك اليوم بأن يكون من هؤلاء الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وذكْر العدد في قوله: (**سَبْعَةٌ**). حثٌّ منه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على ضبط هذه الأوصاف، ومعرفتها معرفة جيدة ومجاهدة النفس على التحلي بها.

قَوْلُهُ: (**يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**). إضافة الظل إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جاءت مفسرة في غير ما حديث عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حيث قال في حديث آخر: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»[١]، فالمطلَق جاء ما يفسره ويقيِّده في بعض الأحاديث عنه ﷺ فهذا ظل عرش الرحمن، والواجب على المسلم فيما يتعلق بأمور الآخرة والمغيَّبات أن يتلقاها بالتسليم والإيمان، وأن يُمِرَّها كما جاءت عن النبي ﷺ، وأن لا يقحم عقله القاصر دفعًا لهذه النصوص أو تشككًا فيها، أو نحو ذلك من الطرائق الآثمة الباطلة المحرمة.

وجاءت أحاديث أخرى في ذكر خصال أخرى موجبة للظلال، فليست الخصال الموجبة للظلال محصورة في السبعة المذكورة في هذا الحديث، وليس هذا الحديث حاصرًا لها، وقد أفرد بعض أهل

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٨٤٥).

العلم هذه الخصال في مصنفات خاصة جمعوا فيها ما جاء عن النبي ﷺ من خصال توجب للعبد أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله[١].

قَوْلُهُ: (**الإمامُ العادِلُ**). بدأ النبي ﷺ هذه الخصال السبع بالإمام العادل، أي: الذي يقوم في رعيته بالعدل والقسط، والبعد عن الجَور والظلم والحيف، ويتقي الله فيما استرعاه من رعية، فيتعامل معهم بالعدل.

والعدل: هو إقامة شرع الله، وتطبيق حدود الله، وإنصاف المظلوم، وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم، فمن كان كذلك من الولاة كان يوم القيامة ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وقدَّم النبيُّ ﷺ الإمام العادل على غيره؛ لأنَّ نفع الإمام العادل نفع عام، ومتعدٍ لعموم الرعية إذا وفقه الله لذلك ومنَّ عليه بذلك وجعله من أهل العدل والإنصاف، فقدمه لعموم نفعه للرعية كلِّها.

قَوْلُهُ ﷺ: (**وَشابٌّ نَشَأ بِعِبَادَةِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ). أي: نشأ عابدًا من صغره، معتنيًا بالعبادة، مقبلًا على الطاعة، ليست عنده صبوة، ولا نزوة من نزوات الشباب وسفههم وطيشهم، بعيدًا عن ذلك كله، وقليلٌ من الشباب من يوفق لذلك، وفي حديث في سنده مقال: «**عَجِبَ رَبُّكُمْ لِشَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ**»[٢]. فهذا أمر عظيم أن ينشأ الشاب على هذا الوصف، بعيدًا عن نزوات الشباب، مراعيًا للاستقامة محافظًا عليها، ومن كان كذلك أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ولهذا ينبغي على الآباء والأمهات والمربين أن يشرحوا هذا المعنى لأبنائهم، وينبغي على الصغار أن يَعُوا

---

(١) كالسيوطي في رسالة «تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٣/ ٢٨٨)، وضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٦٥٨).

هذ المعنى وأن يفهموه في صغرهم ليحرصوا على أن تكون نشأتهم كذلك، وهذا المقام مقام مجاهدة للنفس، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ◈

قَوْلُهُ ﷺ: **(وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَساجِدِ)**. أي: يحب المساجد حبًّا عظيمًا، وقلبه مرتبط ومتعلق بالمسجد إذا خرج منه، فإذا أدى الصلاة اشتاقت نفسه أن تدخل إلى المسجد في صلاة أخرى لعظم مكانة المساجد في قلبه؛ وذلك لِمَا يجده في المساجد من قرة عين وأنس خاطر وبهجة قلب، والمساجد قرة عيون المؤمنين، وهناء قلوبهم وراحة نفوسهم، فيها يجدون راحتهم وسعادتهم، ولا سيما وهم يؤدون الصلاة المكتوبة، والطاعة المفروضة في بيوت الله كما أمرهم الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]. فمن كان قلبه كذلك معلقًا ببيوت الله محبًّا لها، محافظًا على أداء الصلوات الخمس المكتوبة فيها، حريصا على الجلوس في المسجد والمكث فيه، كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وليس معنى «**قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَساجِدِ**» أي: أنه يبقى دائمًا في المسجد لا يخرج منه، بل هو يخرج لمصالحه، ويؤدي أموره من تجارة إن كان ذا تجارة، أو عمل إن كان ذا عمل، لكن هذه الأعمال لم تشغل قلبه عن التعلق بالمسجد وانتظار الصلاة والشوق إليها والحرص عليها، ومن أمارة ذلك أنه يبادر إلى الصلاة حينما يسمع الأذان؛ لأنَّ الناس عند سماع الأذان على صنفين: صنف إذا سمع الأذان فرح وابتهج، وترك كل ما في يده، كيف لا وقلبه معلق بالمساجد! وصنف إذا سمع الأذان

ربما قلِق، وأحس أن ثمة أمرا سيعيقه عما بيده من عمل، فلهذا يتأخر ويبقى لاهيًا بعمله، بل ربما انتهت الصلاة وهو منشغل بعمله؛ لأن قلبه معلق بعمله وصنعته.

وهذا الحديث يفيدنا فائدة عظيمة: أنَّ صلاح العبد عائد إلى قلبه، وإلى الشيء الذي يتعلق به ويميل إليه، والإنسان تبع لهذا القلب كما قال ﷺ: «**أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلب**»[1]. فحال المرء بحسب ما تعلق به قلبه.

قَوْلُهُ: (وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ). في جميع الخصال المذكورة يُذْكَرُ رجل إلا في هذه الخَصْلَة؛ لأن التَّحَابَّ يحتاج إلى مفاعلة بين اثنين، هذا يحب هذا وذاك يحبه، وتحابُّهم في الله ولأجل الله، وهذا أوثق عُرى الإيمان كما قال ﷺ: «**أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللهِ، وَالبُغْضُ فِي اللهِ**»[2]. وفي الحديث يقول الله: «**أَيْنَ المُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي؟**»[3]. فالحب في الله من الأعمال العظيمة والخصال الجليلة، وهو أوثق عرى الإيمان، وفي الحديث: «**مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[4]. وهذا الحب الذي يقوم في قلوب أهل الإيمان بعضهم لبعض مبنيٌّ على الإيمان الذي تَحَلَّوْا به وكانوا من أهله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٢٤)، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني.

إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي: أخوَّتهم في الله، ومبناها على الإيمان به، وعلى طاعته ورضاه، وهذه الأخوَّة والرابطة الإيمانية هي أوثق رابطة على الإطلاق، وهي التي تبقى لأهلها في الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فكل رابطة تنقطع إلا الأخوة في الله، ولهذه الأخوة مقتضيات جاء تبيانها في كتاب الله، وينبغي على المتآخين في الله أن يعملوا على تحقيقها منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٠-١٢]، فهذه كلُّها مقتضيات ومتطلبات لهذه الأخوة الإيمانية، ومثل هذا قول النبي ﷺ: «**لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[1]، فحققوا هذه الأخوة، ومعانيها بالبعد عما ينافيها من هذه الأعمال، وعليه فإن مثل هذه الأوصاف: كالغيبة والنميمة والغش والاستهزاء والسخرية إذا وُجِدَتْ في المرء تجاه إخوانه المؤمنين فهذا من ضعف إيمانه وضعف دينه.

فالحاصل: من يوفق لذلك التحاب في الله فاز بالظلال يوم القيامة.

قَوْلُهُ: (**تَحابَّا في اللهِ**). أي: كان تلاقيهما واجتماعهما مؤسسًا على المحبة في الله، فليست هناك مقاصد وأهداف دنيوية، ولهذا كثير من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

المحبات التي تقع بين الناس تنتهي بالمصالح التي تكون بينهم والمطامع التي تكون بينهم إلا المحبة في الله؛ فإنها باقية في الدنيا والآخرة.

قَوْلُهُ: **(تَفَرَّقا عَلَيْهِ)**. أي: فرَّقهم الموت وهم على هذه المحبة، مضوا وحافظوا عليها إلى أن فرَّقهم الموت.

ويفيد هذا الحديث: أن هذه المحبة إذا أُكرم بها المرء ينبغي أن يحافظ عليها، وأن يحرص أن لا تضيع منه، وأن تبقى معه إلى أن يموت، وتتجسد هذه المحبة في صفائه ونقائه وحبه لإخوانه، والبعد عن الأوصاف الذميمة التي تضعف هذه المحبة وتخدشها، فيحرص على هذه المحبة إلى أن يتوفاه الله؛ طمعًا في أن يكون من أهل هذه الخصال الموجبة للظلال يوم القيامة. ◈

قَوْلُهُ ﷺ: **(وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمالٍ، فَقالَ: إنِّي أخَافُ اللَّهَ تَعَالَى)**. أي: دعته امرأة إلى نفسها لارتكاب الفاحشة والوقوع في الزنا، وكانت ذات منصب وجمال، فاجتمع فيها: المنصب والجاه والمكانة والمنزلة والشرف، واجتمع فيها أيضا: الجمال والحسن، إضافة إلى ذلك دعته إلى نفسها، أي: لم يَحْتج المقام إلى مراودة، وإنما هي التي دعته وراودته، فامتنع، ولم يمنعه من ذلك إلا خوف الله، كما في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: حيث راودته امرأة العزيز مراودة عظيمة وقد أوتيت منصبًا وجمالًا، وتهيَّأت ليوسف وتعطَّرت وتجمَّلت، وهو شاب غريب في فورة الشباب، وقد أوتي شطر الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي التي راودته كما قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: ٢٣]، بل توعدت وهددت، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولم يقتصر الأمر عليها فقط، بل حتى النسوة في المدينة؛ فصار مطمعًا للجميع، إلا أنه قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا

يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣- ٣٤].

فالحاصل: من حصل له هذا الابتلاء، وتعرض لهذه المحنة بأن تدعوه امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها، فامتنع خوفًا من الله، فإن هذا الامتناع موجب للظلال يوم القيامة، وإن كانت اللذة هي المطلوبة، فلا والله ليست بلذة أن يواقع حرامًا للحظات يسيرة يبوء بخزيه وعاقبته الوخيمة في الدنيا والآخرة.

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرام ويبقى الخزي والعار

تبقى عواقب سوء من مغبتها ... لا خير في لذة من بعدها النار

أي: لا خير في لذة للحظة يسيرة يعقبها ندامات وأسقام وأمراض وخزي، فإن كان البحث عن اللذة؛ فاللذة الحقيقية في الانتصار على النفس، ومن ينتصر على نفسه في مثل هذا المقام يجد لذة في انتصاره على نفسه لا يجدها من يتعاطى تلك الشهوة المحرمة ولا يذوقها؛ فإن امتناع الإنسان عن الحرام طاعة لله يعقب في المطيع حلاوة ولذة لنفسه لا تُوصف، فإن كان البحث عن اللذة فها هي اللذة في الدنيا والآخرة، ثم يكون هذا الامتناع موجبًا لظل الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله، هذه هي اللذة، والسعادة الحقيقية في الآخرة، ليست اللذة في مقارفة رذيلة وفعل خطيئة ديئة.

وفي قوله: «**إنِّي أخافُ اللهَ**» فائدة عظيمة، لو أنَّ العبد استحضرها في كلِّ مقام تدعوه نفسه للمعصية لسلم من المعصية، «**إنِّي أخافُ اللهَ**» هذا دواء وشفاء وأمان للعبد من الوقوع في المحرم؛ ولهذا ينبغي على العبد أن يستحضر خوف الله، وكلما دعته نفسه لارتكاب المحرم ذكَّرها برؤية الله واطلاعه عليه، وأنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا تخفى عليه خافية.

ذكر ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّ أعرَابِيًّا راوَدَ أعرَابيَّةً في الصَّحرَاءِ عن نَفسِهَا، وَقالَ في جُمْلَةِ كَلَامِهِ لَها فِي إِغرَائِهَا، قالَ: مِمَّن تَخَافِينَ؟ نَحنُ فِي مَكانٍ لا يَرانَا إلَّا الكَوَاكِبُ، فقالَت تِلكَ الأعرَابيَّةُ: وَأيْنَ مُكَوْكِبُهَا؟!. أيْنَ مُكَوْكِبُ الكَوَاكِبِ خَالِقُهَا؟! فَتَوَقَّفَ»[١]. خوَّفته بالله، وهذا الوازع أعظم وازع وأكبر رادع على الإطلاق.

يقول الإمام الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظا أكبر ولا زاجرا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم ليس بغائب عما يفعلون، وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلا ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكا قتَّالا للرجال سفاكا للدماء، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلما، وسيافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دما، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدا من الحاضرين يهم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه وعالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم خاشعة عيونهم ساكنة جوارحهم؛ خوفا من بطش ذلك الملك، ولا شكّ -ولله المثل الأعلى- أنَّ رب السموات والأرض جلَّ وعلا أشدُّ علمًا، وأعظمُ مراقبة، وأشدَّ بطشًا، وأعظمُ نكالًا وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه. فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي

(١) انظر: «مجموع رسائل ابن رجب - رسالة التوحيد وتحقيق كلمة الإخلاص» (٣/ ٧١).

لَانَ قلبه، وخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله جَلَّوَعَلَا»[١].

فإذا استحضر المرء أنَّ الله يراه، وأنَّ الله مطلع عليه، وأنَّ الله لا تخفى عليه خافية، وأنَّ بطشه شديد وعقابه أليم، وتحرك في قلبه الخوف من الله فلا يمكن أن يفارق الفضيلة ويقارف الرذيلة.

قَوْلُهُ: (**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفاهَا حَتَّى لا تَعْلَم شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**). أي: من قوة إخلاصه وعظيم طمعه فيما عند الله تعالى، ورغبته أن يكون العمل بينه وبين الله؛ وهذه صدقة السر وشأنها عظيم، ولا مانع أن تكون الصدقة علانية بالنية الحسنة؛ مثل الصحابي الجليل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي تصدق عندما حَثَّ النبي ﷺ على الصدقة، فجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها، وضعها بين يدي النبي ﷺ، فتتابع الصحابة على إثر ذلك، فقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»[٢]. فإن كان هذا لقصد تحريك الآخرين، وحثهم على الصدقة فحينئذ تكون حسنة إذا أُعلنت، فالأصل في صدقة المرء أن يُسِرَّها، إلا إذا كانت هناك مصلحة في إعلانها، وكان إعلانها عن نية حسنة وقصد طيب، أما إذا أعلنها الإنسان رياءً لم يقبلها الله منه؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[٣].

وإخفاء المرء صدقته حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه؛ هو من مبالغته في إخفاء صدقته، حتى إن بعض السلف من مبالغته في هذا

---

(١) انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٢/ ١٧٠- ١٧١).
(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

الباب فإن المتصدَّق عليه لا يدري من تصدق عليه، يأتي في جوف الليل ومعه الطعام واللباس والغذاء، فيضعه عند باب الفقير ويطرق الباب ويمضي، فلا يدري الفقير من وضعه، حتى إنَّ بعض الفقراء لم يعلموا بالشخص الذي كان ينفق عليهم إلا بموته؛ لما مات انقطعت، فعرفوا أنها كانت منه، من مبالغته في إخفاء الصدقة لتكون سرًّا بينه وبين الله تعالى.

قَوْلُهُ ﷺ: (**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خاليًا فَفاضَتْ عَيْناهُ**). أي: بينه وبين الله، وهذا من إخلاصه، وعظيم إقباله على الله، وعظيم طمعه فيما عند الله، ففاضت عيناه. أي: نزل الدمع من عينيه من خشية الله، وهذا مقام عظيم في خلوة العبد بينه وبين الله تعالى، ولا سيما في جوف الليل، وثلث الليل الآخر وقت التنزل الإلهي، وسكون الكون وهدوء الناس، قال ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، منْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٤)، فإذا وُفِّق العبد للوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، والتأمل في آياته، والتدبر في كلامه، فبكى من خشيته، فإن ذلك من موجبات الظل يوم القيامة.

الحاصل: أن هذا الحديث حديث عظيم مبارك؛ ذكر فيه النبي ﷺ هؤلاء السبعة الذين كَمَّلَ كلُّ واحدٍ منهم العبادةَ التي قام بها؛ ففازوا بأنَّ الله يظلهم يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله. ◈

(وروى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال: أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رجلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أعظمُ؟ قالَ: «أنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ**

---

(٤) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

تَخْشَى الفقْرَ وَتَأْمَلُ الغِنَى، وَلَا تُمْهِلْ حَتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، لِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ». متفق عليه[1]).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟) هذا سؤال عن الصدقة وأيها أعظم، وتكرار السؤال عن الأعظم والأفضل يدلُّ على حرص الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على فضائل الأعمال وثوابها؛ رغبة منهم في الاستكثار من الخيرات، وتحصيل الأعمال ونيل فضائلها، وهذا مما يؤكد أهمية دراسة فضائل الأعمال والوقوف عليها، ومعرفة الأحاديث الواردة فيها الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ حتى تكون حافزًا للمرء على العناية بالعبادة، والاهتمام بالتقرب إلى الله.

قَوْلُهُ: (يَا رَسُولَ اللهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟) أي: أعظم أجرًا ومثوبةً عند الله، وليس سؤاله عن نوع الصدقة وقدرها، وإنما سؤاله عن وقتها الأفضل الذي تخرج فيه.

قَوْلُهُ: (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفقْرَ وَتَأْمَلُ الغِنَى). أي: تخرج الصدقة وتبذل النفقة والمال حال كونك صحيحًا، فالإنسان حال صحته وعافيته يقع في نفسه شحٌ في المال؛ لما يخشاه من الفقر ويؤمله من الغنى، وهذا الغالب من حال الناس، فما دامت الصحة موجودة فإنه يخشى الفقر، فلهذا إذا أراد أن يخرج القليل أو الكثير بدأ يحسب الحسابات، وكم تؤثر عليه وكم تخلّ بميزانيته؛ لأنَّه يأمل الغنى،

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

ونفسه تطمع في الغنى، وتطمع في وجود المال عنده، فيقع في نفسه شحٌ بسبب الصحة التي عنده، بخلاف ما إذا مرض، فإن مرضه يثمر فيه زهدًا في المال ولا سيما إذا اشتد المرض، فالصحة قرينها -في الغالب- الشح في المال، والمرض قرينه -في الغالب- عدم الاهتمام بالمال.

ومن القصص التي تروى في هذا الباب -وهي كثيرة- وفي بعض القصص عبرة: يذكر أحد الأفاضل أنه أتى إلى أحد الأثرياء، وعنده أموالٌ كثيرةٌ، فعرض عليه بناء مسجد، وهو في حال مرضه، فوافق على بنائه، وقال: هيئ المخططات لهذا المسجد وأنا متكفل ببنائه، فاشتغل الفاضل بتهيئة هذه المخططات للمسجد، ولما كمَّلها وعاد للرجل، فإذا به قد خرج من المستشفى وعُوفي، فأتاه في بيته فذكر له المشروع الذي تعهد به، فقال الرجل: والله سامحنا؛ عندنا التزامات كثيرة ما نستطيع، يقول الفاضل: ثم فيما بعد مَرِضَ مرة أخرى، فأتيته في المستشفى، فقال: هيئ لي المخططات وأنا أتولى هذا الأمر، يقول: فذهبت لأهيئها له، ثم في أثناء تهيئتها مات قبل أن تصل إليه. وفي هذا الباب قصص كثيرة فيها عبرة، والسعيد من وُعِظ بغيره.

فالحاصل: أن حال الصحة يحصل فيها شحٌ في المال، والسبب كما جاء في الحديث: «**تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الغِنَى**». لكن إذا كان مريضًا -ولا سيما إذا اشتد المرض- فإنه لا يبالي أن يخرج من الأموال، لكن أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت في صحة وعافية.

قَوْلُهُ: (**صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفقْرَ وَتَأْمَلُ الغِنَى**). أي: تأمل أن يكثُر مالك، وتُروى: «**وَتَأْمَلُ البَقَاءَ**»[(١)]، ولعلها أولى؛ لأن الصحيح

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٢).

يستبعد الموت فيخشى الفقر لما يؤمله من طول الحياة، بخلاف المريض فإنه يتقارب الموت وتذهب عنه تلك الخشية، ويحس بأنه شارف على مفارقة الحياة، فيخرج من ماله لفلان كذا، ولفلان كذا.

قَوْلُهُ: (**حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ**). ليس المراد بـ «بلغت» أي: أنه وصل إلى درجة الغرغرة وخروج النفس؛ لأنَّ في مثل هذه الحال لا تكون تصرفات المرء من عطاء وهبة نافذة وماضية، وإنما المراد بذلك: أي: قاربت، وقوله «الحُلْقُومَ»، هذا يفيد أن روح المرء في خروجها تبدأ تخرج من أسفل بدنه، ولهذا أول ما يموت من الإنسان أسفله إلى أن تبلغ روحه الحلقوم في نزعها، وخروجها من بدنه، فإذا بلغت الحلقوم يغرغر الإنسان بها، ثم يفارق هذه الحياة.

قَوْلُهُ: (**قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، لِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**) لأنَّه بمفارقته الحياة لم تبق أمواله له؛ لأنه فارق الحياة، فإذا أخرج المال في لحظاته الأخيرة من عمره، فهو بعد قليل آيل وصائر إلى غيره، ولهذا قال: «**وَقَدْ كانَ لِفُلانٍ**»؛ لأنَّ مال المرء له في حياته، فإذا مات لم يصبح مالًا له، وإنما يصبح مالًا للورثة، ولهذا يعد المرء في هذه الحياة ولا سيما الجامع له والمكتنز له خازنًا وحافظًا، وَظَّفَ نفسه في هذه الحياة أن يحفظ المال، ويجمعه للورثة الذين يقتسمون المال من بعده، بخلاف المنفق، فالمنفق هو الذي أحسن إلى نفسه إحسانًا عظيما؛ لأنه قدم لنفسه، «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ مَالُكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَبْلَيْتَ، وَلَبِسْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ**»[1]. هذا مال الإنسان وسواه هو لورثته وليس له. ◈

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩).

(وروى أبو أُمامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أنْ تَبْذُل الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأنْ تُمْسِكهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى». أخرجه مسلم(١).

واليد العُليا: هي المنفقة، كذا جاء مُفَسَّرًا في الحديث.

وقال الخَطَّابِيُّ: روي في بعض الحديث أنها المُتعفِّفة، والسُّفلى: السائلة(٢).

ورُوي عن الحَسَن أنها الممسكة المانعة، وذهبتِ المُتصوفةُ إلى أنَّ اليد العليا: هي الآخذةُ؛ لأنها نائبةٌ عن الله -تعالى-، وما جاء في الحديث الصحيح أَوْلى).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ أنْ تَبْذُل الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ). بفتح الهمزة في قوله: «أَنْ». والمراد بالفضل؛ أي: ما فضَل عن حاجتك وحاجة أولادك وأهل بيتك، فما زاد عن الحاجة أن تبذله خير لك؛ لأنه يبقى لك ذخرًا وأجرًا وثوابًا عظيمًا يوم تلقى الله، وبركة عليك في هذه الحياة.

قَوْلُهُ: (وَأنْ تُمْسِكهُ شَرٌّ لَكَ). أي: إذا كان إمساكه إمساكًا عمَّا أوجب الله بذْله وإنفاقه فهو شر له؛ لأنَّه يكون بذلك آثمًا، وأمَّا إن كان الذي أمسكه من باب المندوبات فإمساكه شر له من جهة أن بقاءه عنده شاغلٌ له من غير حاجة له، فهو شر له في كلتا الحالتين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٦).

(٢) انظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٥٩٥).

قَوْلُهُ: (**وَلا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ**). أي: لا يُلام المرء على إمساكه ما يكفيه وما هو محتاج إليه، فلا يلام على إمساكه من ماله ما فيه كفايته وما فيه حاجته وحاجة أهل بيته وولده؛ فلا يلام على كفاف، وإنما اللوم في الفضل الزائد الذي لا حاجة للإنسان فيه.

قَوْلُهُ: (**وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ**). أي: من أهل وولد؛ والنفقة على هؤلاء واجبة، والنفقة عليهم أولى من غيرهم ومقدمة على غيرهم.

قَوْلُهُ: (**وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**). العلوُّ هنا هو علوُّ الفضل والمكانة والنُبل، والقدر في البذل والعطاء والسخاء.

وأشار إلى ذلك المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ قال: العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة، كذا جاء مفسرًا في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَاليَدُ العُلْيَا المُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ**»[1]. ففسر النبي ﷺ المراد بالعليا والسفلى، فلا يحتاج بعد بيانه إلى بيان أحد.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقال الخطابي: روي في بعض الحديث أنها المتعففة، والسفلى السائلة**». لكنها شاذة، قال أبو داود: «اختلف على أيوب عن نافع في هذا الحديث، فقال عبد الوارث: اليد العليا المتعففة. وقال أكثرهم عن حماد بن زيد عن أيوب: اليد العليا المنفقة. وقال واحد عن حماد: المتعففة»[2].

قَوْلُهُ: (**وروي عن الحسن أنها الممسكة المانعة**[3]). أي: السفلى.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).

(٢) سنن أبي داود (١٦٤٨).

(٣) رواه أبو الشيخ في أمثال الحديث (٨٩).

قال الحافظ في الفتح: «ولم يوافق عليه»[(١)].

قَوْلُهُ: (وذهبت المتصوفة إلى أن اليد العليا هي الآخذة). أي: اليد التي تمتد للناس تسألهم، وتستجدي منهم هي اليد العليا في فهم هؤلاء، وهذا التفسير لائق تمامًا بحال هؤلاء؛ لأن من الأمور التي يبنى عليها التصوف تعطيل الأسباب، والتواكل الذي يورِّث في فاعله احتياج الناس والتسول، حتى إن التسول في بعض طرق التصوف عُدَّ من الطرق الموصلة إلى الله التي بزعمهم يكون فيها كسر للقلب وإيجاد الافتقار فيه، وهذا كله من الباطل المتراكم الناشئ من البعد عن هدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما أرى هؤلاء إلَّا قومًا استطابوا السؤال؛ فهم يحتجُّون للدناءة، ولو جاز هذا لكان المولى من فوق هو الذي كان رقيقا فأُعتق والمولى من أسفل هو السيد الذي أعتقه»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتفسير من فسر اليد العليا بالآخذة باطلٌ قطعًا من وجوه:

أحدها: أن تفسير النبي ﷺ بالمنفقة يدل على بطلانه.

الثاني: أنه ﷺ أخبر أنها خير من اليد السفلى، ومعلوم بالضرورة أن العطاء خير وأفضل من الأخذ، فكيف تكون يد الآخذ أفضل من يد المعطي.

الثالث: أن يد المعطي أعلى من يد السائل حسًّا ومعنى، وهذا معلوم بالضرورة.

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢٩٨).
(٢) نقله الحافظ في الفتح (٣/ ٢٩٨).

الرابع: أن العطاء صفة كمال دال على الغنى والكرم والإحسان والمجد، والأخذ صفة نقص مصدره عن الفقر والحاجة، فكيف تفضل يد المعطى؟! هذا عكس الفطرة والحس والشريعة. والله أعلم»[١].

وقولهم: **(لأنها نائبةٌ عن الله)**. هو من الفهم الأعوج والتقرير المنحرف؛ فإنَّ ما ورد في الأحاديث بشأن الصدقة أنَّ الله يأخذها بيمينه؛ يفيد أنَّ الله يتقبل منه صدقته وينميها له ويعظم له ثوابها، وهذا يفيد أن العلو للمتصدِّق بقبول الله صدقته وتنميتها له، وما يجده عليها يوم القيامة من الثواب العظيم، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، فانظر كيف جعل هؤلاء بفهمهم المنحرف العلو للمتصدَّق عليهم.

قَوْلُهُ: **(وما جاء في الحديث الصحيح أولى)**. أي: هذه الأقوال أشار إليها مجرد إشارة؛ أما الصحيح هو ما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَاليَدُ العُلْيَا المُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ**»[٢]، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. ◈

وروى أبو موسى الأشعريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ، قال: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ». قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «فَلْيَعْمَلْ بِالمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ». متفق عليه[٣].

---

(١) تهذيب السنن (٢/ ٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٠٠٨)، ومسلم (١٠٣٦).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**). أي: كل يوم كما تقدم: «**يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»[١]، فكل يوم تطلع فيه الشمس فيه صدقة مطلوبة من المسلم؛ بحيث يكون له في كل يوم حظ من الصدقة.

قَوْلُهُ: (**فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟**). أي: يمر عليه أيام لا يجد ما يتصدق به، وهذا السؤال مبني على حرصهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير.

قَوْلُهُ: (**يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ**). الملهوف: المضطر المحتاج إلى ما يعينه، وهذا يتناول كل أنواع الإعانة لأصحاب الضرورات، والذين يحتاجون إلى المعاونة والمساعدة والدلالة والإرشاد والنصح والتوجيه.

قَوْلُهُ: (**فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟**). أي: لم يجد ذا حاجة ليعينه فماذا يصنع؟

قَوْلُهُ: (**فَلْيَعْمَلْ بِالمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عَنِ الشَّرِّ**). أي: يعمل المعروف من ذكر وحمد وتسبيح وقراءة للقرآن وصلاة ودعاء وغير ذلك، ويمسك عن الشر؛ أي: يكفُّ عن المعاصي والآثام وعن أذى الناس، فيمنع نفسه من ذلك.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهَا لَهُ صَدَقَةٌ**). أي: صدقة منه على نفسه بفعله للمعروف وتجنبه للمعاصي والمنكرات.

(وروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى نُودِيَ فِي الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٢).

أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجِهاد، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ»، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نعم، وأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ». متفق عليه[1]).

قَوْلُهُ: (مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ): قال الحسَن البَصْريُّ: يعني: اثنين من كُلِّ شيءٍ: درهمين دينارين ثوبين، وقال غيره: يريد شيئين؛ درهمًا وديناًرا، درهمًا وثوبًا، خُفًّا ولجامًا، ونحو هذا.

قال الباجيُّ: يحتمل أنْ يريدَ بذلك العمل؛ من صلاتين أو صيام يومين.

• الشرح •

قَوْلُهُ: (زَوْجَيْنِ). نقل المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تفسيرات أهل العلم للمراد بالزوجين، فقيل: الشيئين من نوع واحد، مثل: درهمين أو دينارين أو شاتين أو ثوبين أو بعيرين وهكذا، وقيل: المراد بالزوجين: شيئين من نوعين مختلفين، مثل: درهم ودينار، أو ثوب وعمامة، أو لجام وخف، أو شاة وبعير، وهكذا، وقيل المراد بذلك: العبادات؛ مثل: ركعتين، أو صيام يومين، أو صدقتين، وهكذا.

قَوْلُهُ: (في سَبِيلِ اللهِ). قيل: هو مخصوص بالجهاد، وقيل: هو على العموم في جميع أبواب الخير، وهو الأظهر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧).

قَوْلُهُ: (**نُودِيَ فِي الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ! هَذَا خَيْرٌ**). المنادي هم خزنة الجنة كما ورد في لفظ آخر للحديث: «**دعاهُ خَزنةُ الجنَّة، كلُّ خزنةِ باب، أي فُلُ هلُمَّ**»[1] وقولهم: «**هَذَا خَيْرٌ**» زيادة ترغيب للدخول من ذلك الباب.

قَوْلُهُ: (**فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّلاةِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الجِهادِ دُعِيَ مِنْ بابِ الجِهاد، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**). وهذا فيه: أن الأعمال الصالحة ولا سيما مباني الدين، كما في الحديث: «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادِةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ البَيْتِ مَن اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»[2]، فهذه الأعمال موجبات لدخول الجنة، حتى إن للجنة أبوابًا بأسماء هذه الأعمال؛ باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الجهاد، «ومعنى الحديث: أن كل عامل يدعى من باب ذلك العمل، وقد جاء ذلك صريحًا من وجهٍ آخر؛ عن أبي هريرة لكل عامل باب من أبواب الجنة يدعى منه بذلك العمل. أخرجه أحمد وابن أبي شيبة بإسنادٍ صحيح»[3].

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**). لم يُسمِّ باب الصيام مثل باب الصلاة، والصدقة، والجهاد؛ لأن الصائم عطَّش نفسه، وصبر على العطش؛ طلبًا لثواب ربه والفوز بمرضاته، والجزاءُ من جنس العمل؛ ولهذا سمي بهذَا الاسم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤١)، ومسلم (١٠٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).
(٣) فتح الباري (٧/ ٢٨).

قال الحافظ ابن حجر: «وقع في الحديث ذكر أربعة أبواب من أبواب الجنة، وتقدم في أوائل الجهاد: «وإن أبواب الجنة ثمانية»، وبقي من الأركان الحج فله باب بلا شك، وأما الثلاثة الأخرى فمنها: باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس؛ رواه أحمد بن حنبل عن روح بن عبادة عن أشعث عن الحسن مرسلًا: «إن لله بابًا في الجنة لايدخله إلا من عفا عن مظلمة». ومنها الباب الأيمن: وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب، وأما الثالث: فلعله باب الذكر؛ فإن عند الترمذي ما يومئ إليه، ويحتمل أن يكون باب العلم. والله أعلم»(١).

قَوْلُهُ: (**قال أبو بكر الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). وهو سبَّاق الأمة إلى الخيرات، وهو خير أمة محمد ﷺ وأفضلها، بل إنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خير الناس بعد النبيين من جميع الأمم، وهذا المعنى دلَّ عليه القرآن والسنة؛ أما القرآن: ففي قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهو خير هذه الأمة. وأما السنة: فقد قال النبي ﷺ: «**أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ عَدَا النَّبِيِّينَ**»(٢)، هذه منزلته تلي منزلة الأنبياء فضلًا في كل الأمم.

قَوْلُهُ: (**يَا رَسُولَ اللهِ! مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟**). أي: يُدعى من جميع الأبواب: باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الصدقة، وباب الريان، سأل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لحرصه العظيم على المسابقة في الخيرات والمسارعة إليها، والمنافسة في الصالحات.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٥)، وابن ماجه (٩٥)، وصححه الألباني.

قال الحافظ ابن حجر: «وفي الحديث إشعار بقلة من يدعى من تلك الأبواب كلها، وفيه إشارة إلى أن المراد ما يتطوع به من الأعمال المذكورة لا واجباتها؛ لكثرة من يجتمع له العمل بالواجبات كلها بخلاف التطوعات، فقل من يجتمع له العمل بجميع أنواع التطوعات، ثم من يجتمع له ذلك إنما يدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم له؛ وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد، ولعله باب العمل الذي يكون أغلب عليه، والله أعلم»[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما سَمت همة الصِّديق إلى تكميل مراتب الإيمان، وطمعت نفسه أن يُدعى من تلك الأبواب كلها، فسأل رسول الله ﷺ هل يحصل ذلك لأحد من الناس؛ ليسعى في العمل الذي ينال به ذلك، فأخبره بحصوله وبشَّره بأنه من أهله، فكأنه قال: هل يكمل أحد هذه المراتب فيُدعى يوم القيامة من أبوابها كلها؟ فلِلَّهِ ما أعلى هذه الهمة، وأكبر هذه النفس»[٢].

قَوْلُهُ: (أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ). وهذه منقبة لأبي بكر لم تكن لغيره رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولهذا لما أورد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث في كتاب «منهاج السنة»، الذي ردَّ فيه على أباطيل الرافضة وأكاذيبهم، أورده في فضائل الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال: «ولم يذكر هذا لغير أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[٣]، وهذه منقبة لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وشاهد بَيِّنٌ على عظيم مسابقته للخيرات، وإيمانه وفعله للصالحات، ومع هذه الفضائل العظمى والمناقب الكبرى لهذا الصحابي الجليل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلا أنَّ هؤلاء

(١) فتح الباري (٧/ ٢٨-٢٩).
(٢) حادي الأرواح (٢٢٢).
(٣) انظر: «منهاج السنة» لابن تيمية (٧/ ١٦٢).

يعدونه شرَّ الناس، بل يعدونه في بعض كتبهم شرًّا من إبليس -والعياذ بالله- وهذا من أعظم الخذلان، وانتكاس القلوب وزيغها وضلالها، وكيف يصل الأمر بالإنسان إلى هذه الحال المزرية؟! وإذا نيل من صديق الأمة فأي خير يبقى فيمن نال منه! ولا والله لا خير فيمن نال من صديق الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وطعن فيه وفي غيره من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهذا طعن في الدين نفسه؛ لأن هؤلاء هم رجالات الدين وحمَلتُه، وأهل الفضائل العظيمة والمناقب الجليلة؛ ولهذا من يطعن فيهم لم يعرف الإسلام، كيف يعرف الإسلام من طعن في حمَلته ونقلته للأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ!

ولهذا قال الامام أبو زُرْعَة الـرَّازِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتم الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فاعلموا أنه زنديق؛ لأن الدين حق، والقرآن حق، وإنما أدَّى إلينا ذلك الصحابةُ، فهؤلاء أرادوا أن يجرحوا شهودنا، وهم بالجرح أولى، فهم زنادقة»[(١)]. ◈

وروى أنسُ بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ كانَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مالًا، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوالِهِ إِلَيْه بَيْرَحَاءَ، وَكانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يدخُلُها، ويَشْرَبُ مِنْ ماءٍ فيها طَيِّبٍ، قالَ أنسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قامَ أبو طَلْحَةَ إِلَى رسولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: إنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوالي إليَّ بَيْرَحَاءَ، وَإِنَّها صَدَقَةٌ للهِ عَزَّوَجَلَّ، أَرْجو بِرَّها، وذُخْرها عِنْدَ اللهِ تعالى، فَضَعْها يا رسولَ اللهِ حَيْثُ شِئْتَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فَقَسَمَهَا أبو

(١) انظر: «الكفاية في علوم الرواية» للخطيب البغدادي (١/ ٤٩).

طَلْحَةَ فِي أقارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. متفق عليه[١].

قوله: (بَيْرحَاء) هو موضعٌ بقرب المسجد، وقيل: (حاء) اسم رجل إليه نسب البئر، واختلف في تقييده: فرُوي بفتح الراء في كل حال، ورُوي بضم الراء في الرفع، وفتحها في النصب، وكسرها في الجرِّ.

وقوله: (بَخٍ): يقالُ بالتسكين، وبالكسر مع التنوين، قال الخليلُ: يقال ذلك للشيء إذا رضيته، ويقال ليعظِّم الأمر.

وقوله: (مَالٌ رَابِحٌ). يروى بالباء المُوحدة؛ من الرِّبْحِ بالأجر وجزيل الثواب؛ أي: ذو رِبْحٍ، ويروى بالياء المثناة؛ من الرَّوَاحِ عليه بالأجر على الدوام ما بقيت أصولُه وثماره، وقال الهَرَوِيُّ: رَابِحٌ؛ أي: ذو رِبْحٍ، ومَنْ رواه: رائح، أراد أنه: قريب الفائدة.

• الشرح •

أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو: زيد بن سهل الأنصاري، زوج أم أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوي الحديث.

قَوْلُهُ: (أنْ أبا طَلْحَةَ كانَ أكْثَرَ الأنْصارِ في المَدِينَةِ مالًا، وَكانَ أحَبُّ أمْوالِهِ إلَيْهِ بَيْرَحَاءَ). وبَيْرَحَاء: هو بستان كان في الجهة التي قُبالة المسجد؛ وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها، وجاء في رواية في البخاري أن النبي ﷺ كان يدخلها، ويستظل فيها[٢]. وأخذ العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ من ذلك جواز قصد البستان للراحة فيه، والاستظلال وقضاء

(١) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥٨).

شيء من الوقت تحت ظل الشجر، وأخذ منه العلماء إباحة استعذاب الماء، وطلب الماء العذب الطيب؛ لأن النبي ﷺ كان يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها، ومراد أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ذكر دخول النبي ﷺ، وكونه يستظل فيها ويشرب من مائه الطيب؛ بيانُ القيمة العظيمة لهذا البستان، والمكانة العلية له عند صاحبه، فمن مكانة هذا البستان العظيمة أن النبي ﷺ كان يدخله ويشرب من مائه، فكان أحبَّ أموالِ أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليه.

قَوْلُهُ: (**فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران: ٩٢]). أي: لن تنالوا حقيقة البر، وتمامه حتى تكونوا بهذا الوصف: تنفقون مما تحبون، فالمطلوب في الآية هو أن ينفق الإنسان مما يحب، وأن لا يتيمم الخبيث، فينفق منه، أو ما لا يحب، لكن أبا طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد لنفسه درجة أعلى، فالمطلوب أن ينفق مما يحب، فأنفق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحبَّ المحبوب، فارتقى إلى درجة أعلى في سخاء نفسه، وبذل المال، فهو لم يقتصر على إنفاق المحبوب من ماله، وإنما أنفق أحبَّ ماله إليه.

قَوْلُهُ: (**قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** [آل عمران: ٩٢]، **وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرَحَاء**). أي: اختار الأحب، ولم يقتصر على المحبوب، فأخرجها صدقةً في سبيل الله سخية بها نفسه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: (**إنها صدقة لله**). هذا فيه: أنَّ الصدقة كغيرها من العبادات لا بد فيها من قصد التقرب إلى الله، وطلب مرضاته حتى تدخل الصدقة في صالح العمل؛ لأنَّه لا يدخل في صالح عمل العبد إلا ما قصد به التقرب إلى الله، وطلب ثوابه ورضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: **(أرجو بِرَّها وذُخْرَها عند الله تعالى)**. **(أرجو)**. أي: بإخراجها. **(برَّها)**. أي: خيرها، وبركة هذه الصدقة وهذه النفقة. **(وذخرها)**. أي: أدخر مثوبتها أجرًا يوم ألقى الله. **(عند الله تعالى)**. أي: يريد على هذا الإخراج الثوابَ يوم القيامة يوم يلقى الله.

قَوْلُهُ: **(فَضَعْها يا رسولَ الله حيث شئتَ)** أي: فوِّض أمر هذا البستان الذي تصدق به إلى الرسول الكريم ﷺ يضعها حيث شاء.

قَوْلُهُ: **(بَخٍ)**: هذه كلمة تقال عند الرِّضَى بالأمر، والثناء على العمل، والمدح على الصنيع.

قَوْلُهُ: **(ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ)** أي: ربح صاحبه في الدنيا والآخرة، وكان ماله ربحًا له، وذخرًا له يوم القيامة، فهي التجارة الرابحة ﴿تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وقد قصرت أنظار كثير من الخلق في الربح بالتجارة على الأرباح الدنيوية، وغاب عنهم مثل هذا الربح العظيم والغنيمة العظيمة التي يحصلها المرء في الدنيا والآخرة.

قَوْلُهُ: **(قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا)**. أي: قد سمع النبي ﷺ ما قال أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بستانه من مكانته العظيمة في نفسه، وأنه أحب أمواله إليه، وأنه أخرجه في سبيل الله طيبة به نفسه، وطالبًا مرضاته جَلَّ وَعَلَا.

قَوْلُهُ: **(وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ)**. أي: تجعلها في قرابتك حتى تكون جامعًا بين الصدقة والصلة، فيجمع في هذا الصنيع بين حُسنيين: صلة الأرحام والقرابة، وهم أحق بالمعروف وأولى به، وفي الوقت نفسه صدقة، وهي في الأقربين أولى وهم أحق بالمعروف، وجاء في رواية عند البخاري قال: «**قَبِلْتُهَا مِنْكَ وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكَ**»[١]، وأراد بقوله:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٨).

«**وَرَدَدْتُهَا عَلَيْكَ**»: أن يجعلها في قرابته الذين هم أحق الناس بالمعروف.

قَوْلُهُ: (**فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ**). أي: امتثل ما أرشده إليه النبي ﷺ، وجاء في سنن أبي داود قال: «فقسمها بين حسان بن ثابت وأُبيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»[1]، وهو يلتقي مع حسان بن ثابت في الجد الثالث، ويلتقي مع أُبَيٍّ في الجد السادس.

قَوْلُهُ: (**بَيْرَحَاء. هو موضع بقرب المسجد، وقيل: «حاء» اسم رجل إليه نسب البئر، واختلف في تقييده: فرُوي بفتح الراء في كل حال، ورُوي بضم الراء في الرفع، وفتحها في النصب، وكسرها في الجرِّ**). أي: أن البستان الذي تصدق به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمى: «بَيْرَحاء»، وبيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه موضع قريب من مسجد النبي ﷺ، وهو في قبالة المسجد.

قَوْلُهُ: (**بَخٍ: يقالُ بالتسكين، وبالكسر مع التنوين**). يقال: بخْ ساكنة، وبخِ مكسورة، وبخٍ منونة، وبخٌ مضمومة، ويقال: بخْ بخْ مسكنين، وبخٍ بخٍ منونين، وبخٍّ بخٍّ مشددين[2].

قَوْلُهُ: (**قال الخليل: يقال ذلك للشيء إذا رضيته، ويقال ليعظِّم الأمر**). أي: يقال في مقام الرضا عن الصنيع، وفي المدح لفاعله، والثناء على الفعل، ويقال لتعظيم الأمر إشارة إلى عظمة الأمر، وأنه أمر عظيم مثل قوله ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ، خَمْسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ في المِيزانِ: سُبْحانَ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، والوَلَدُ يُتَوَفَّى للعَبْدِ الصالِحِ فَيَحْتَسِبُهُ عِنْدَ اللهِ** جَلَّ وَعَلَا»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٨٩).

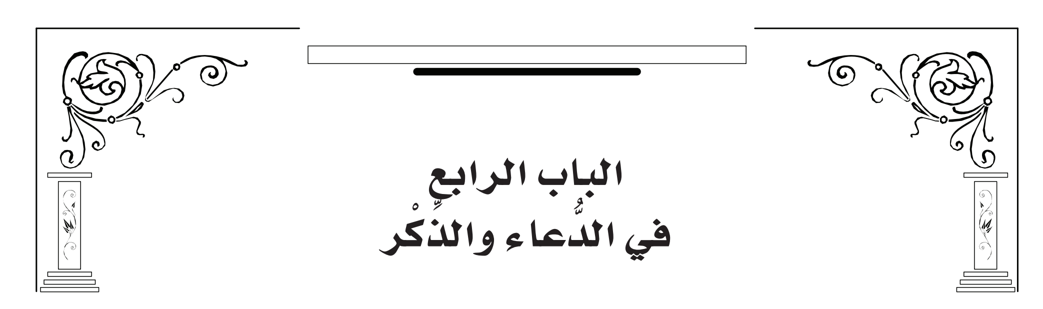
(٢) انظر: القاموس المحيط (٢٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٢٣٥)، وأحمد (٢٢١٧٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٤).

قَوْلُهُ: (مالٌ رابحٌ: يُروى بالباء الموحدة من الربح بالأجر، وجزيل الثواب، أي: ذو ربح، ويروى بالياء المثناة). أي: مالٌ رايح. قال: (من الرَّواح عليه بالأجر على الدوام ما بقيت أصوله وثماره). أي: رايحٌ عليك نفعه، وأجره على الدوام وبشكل مستمر.

قَوْلُهُ: (وقال الهَرَوِيُّ: رابح. أي: ذو ربح، ومن رواه: «رَائِحٌ» أراد أنه قريب الفائدة). فالرائح هو قريب المسافة الذي يروح خيره ولا يعزب نفعه. ◈





الباب الرابع
في الدُّعاء والذِّكْر

فضل الدُّعاء والذِّكر

الذِّكر هو الثناء على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بما هو أهله، وتعظيمه وتمجيده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو أهل الثَّناء والمجد، والله جَلَّوَعَلَا أمر عباده بذكره بل أمرهم بكثرة ذكره، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فالذِّكر من أجَلِّ الأعمال وأعظم القُربات وأحبها إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومن ذَكَرَ الله ذَكره الله؛ قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي الحديث القدسي: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**»[1]، وكفى بهذا دلالةً على شرف الذِّكر وعظيم منزلته.

وأمَّا الدُّعاء فهو سؤال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والالتجاء إليه بطلب خيري الدُّنيا والآخرة، وصلاح الدِّين والدُّنيا والآخرة؛ وذلك لأنَّ الأمر كلّه بيد الله، فبيده العطاء والمنع، والضَّرّ والنَّفع، والحياة والموت، والقبض والبَسط، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فعطاؤه كلام

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

ومنعه كلام، كما قال: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣]، فالدُّعاء حبيب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل ثبت في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ**»(١)، وقال ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»(٢)، وهذا يدل على أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحب الدُّعاء، ويحب عباده الدَّاعين المقبلين عليه؛ سؤالًا وطلبًا وتذللًا.

هذا وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ وآثارُ السلف على جنس المشروع والمستحبِّ في ذِكر الله ودعائه كسائر العبادات، وبيَّن النبيُّ ﷺ لأمّته ما ينبغي لهم أن يقولوه من ذِكر ودعاء في الصباح والمساء، وفي الصلوات وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفزع فيه، وعند تناول الطعام وبعده، وعند ركوب الدابَّة، وعند السفر، وعند رؤية ما يحبّه المرء، وعند رؤية ما يكره، وعند المصيبة، وعند الهمِّ والحزن، وغير ذلك من أحوال المسلم وأوقاته المختلفة.

كما بيّن -صلوات الله وسلامه عليه- مراتب الأذكار والأدعية، وأنواعَها وشروطَها وآدابها أتمَّ البيان وأكمله، وترك أمَّتَه في هذا الباب وفي جميع أبواب الدين على محجّة بيضاء، وطريق واضحة، لا يزيغ عنها بعده إلَّا هالك. و«لا ريب أنَّ الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحرّاه المتحرِّي من الذِّكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبِّر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان، وما سواها من

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني.

الأذكار قد يكون محرَّمًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون فيه شرك ممَّا لا يهتدي إليه أكثرُ الناس، وهي جملة يطول تفصيلها»[(١)].

(**روى النُّعمانُ بن بَشيرٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن النَّبي** ﷺ **قال:** «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**». **ثمَّ قرأ:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. **أخرجه أبو داود والتِّرمذي وابن ماجه**[(٢)]).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**). الدُّعاء أفضل أنواع العبادة وأعلاها شأنًا، وقد دلَّ على ذلك دلائل كثيرة، منها هذا الحديث الذي صدَّر به المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب، وقد جاء هذا الحديث من رواية ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**أَفضَلُ العِبَادَة الدُّعَاءُ**»[(٣)].

فالدُّعاء أفضل العبادة وأحبها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، كقوله ﷺ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»[(٤)]، وقولِه ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[(٥)]، وفي هذا دلالة على أنَّه أشرف أنواع العبادة، وأكرمها على الله وأحبها إليه، وأنَّ الواجب على المسلم أن يستشعر مكانة

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢/ ٥١٠-٥١١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الحاكم (١٨٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٢٢).

(٤) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (٥٥).

الدُّعاء وعلو قدره، فلا يعجز عنه، بل يقبل عليه ويكثر من الإلحاح على سيده ومولاه جَلَّوَعَلَا، كما قال: سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، فأمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عباده بالدُّعاء ووعد بالإجابة، وهو الذي لا يخلف الوعد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أمرهم بالدعاء؛ وهو غني عنهم وعن دعواتهم، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تنفعه طاعة الطَّائعين ولا دُعاء الدَّاعين، وهو القائل جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

وإذا أدخل مخيط في بحرٍ فأي شيء يَنقص منه؟! وهذا يدل على أنَّ خزائن الله ملأى لا يَغيضها نفقة ولا يَنقصها عطاء، سَحَّاء اللَّيل والنّهار،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

فعطاؤه كلام ومنعه كلام، ومن أعظم الأمور المُعِينة للعبد على الدُّعاء أن يعرف أنه يدعو مَن بيده الأمور، ومن بيده ملكوت كلّ شيءٍ، ومَن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وينبغي أيضًا على العبد المسلم أن يعرف قدر الدُّعاء وعظيم شأنه، وأن يعرف أيضًا فقره إلى الله وعدم غناه عنه طرفة عين، فيقبل عليه في كلِّ حاجاته؛ سائلًا طامعًا راجيًا؛ موقنًا أنَّ ربّه لا يرد دعاء من دعاه، ولا يُخيِّب رجاء مَن ناجاه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإذا عُلِمَ مكانة الدُّعاء ومنزلته من هذا الحديث وغيره من نصوص الشَّريعة؛ وأنه أعلى العبادات شأنًا، فيجب أن يُخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن يفرده به؛ فلا يُدعى إلَّا الله، ولا يُسأل إلَّا الله، ولا يُستغاث إلَّا به جلَّ في عُلاه، ولا يُتوجه بالدُّعاء والطَّلب إلَّا إليه؛ فإنَّ دعوةَ غيره والالتجاء إلى غيره من أعظم الضَّلال وأشنعه، حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣- ١٤].

فالدُّعاء هو العبادة، والعبادة حقّ لله؛ فلا يجوز صرف شيء منها

لغيره، فمَن دعا غير الله كان مِن الكافرين المشركين، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فلا يدعى إلَّا الله، ولا يُستغاث إلَّا به، ولا يطلب المدد والعون إلَّا منه. وهذه هي حقيقة شهادة أن لا إله إلَّا الله، فحقيقة كلمة التَّوحيد إخلاص الدِّين كلّه لله، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

وقد صدَّر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بهذا الحديث تنبيهًا على مكانة الدُّعاء وعظيم شأنه، ثمَّ شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر تفاصيل تتعلق بالدعاء، فذكر ما يُقال عند النوم، وما يُقال عند دخول الخلاء، وما يُقال من أذكار ودعوات في الصَّلوات، وغير ذلك ممَّا يأتي ذكرُ فضائله فيما ساقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أحاديث عن الرَّسول الكريم ﷺ. ◈

ما يُقال عند القيام من النوم

(روى ابنُ عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كَانَ النَّبي ﷺ إذا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ولا إِلَهَ غَيْرُكَ». متفق عليه[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

قوله: «أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرضِ». معناه: ذو نور، أي: خالقه، قيل: نُور الدُّنيا في الشَّمسِ والقمر، وقيل: مُنَوِّرُ قلوب عباده المؤمنينَ بالهداية والمعرفة.

وقولهُ: «قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ». أي: القائم بأمرهما).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما يُقال عند القيام من النوم). أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضع ما يتعلق بما يُقال عند القيام من النوم، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض الأدعية والأذكار العظيمة الفاضلة التي تُقال عند القيام من النوم، ولعله -والله أعلم- بدأ بما يُقال عند القيام من النوم لشرف الذِّكر والدُّعاء في ذلك الوقت وعظيم مكانته، وما يترتب عليه من الأجر العظيم والثَّواب الجزيل لمَن يكرمه الله ويوفقه للعناية بالدُّعاء والذِّكر عند قيامه من نومه، والعبد إنَّما يُوفق للعناية بالذِّكر عند قيامه واستيقاظه من نومه؛ إذا كان مشتغلًا بالذِّكر، مُتحريًا له في أوقاته الفاضلة؛ فيجري على لسانه سهلًا يسيرًا دون عناء أو مشقة، فمَن كان هذا دأبه؛ فإنه أول ما يستيقظ من النوم الذي هو بمثابة الموتة الصُّغرى؛ يُبادر إلى ذكر الله ويقبل على الذي طالما انشغل بذكره، ثم هو أيضًا دخل في نومه على ذكر لله، فتكون يقظته كذلك. وهذا كلّه من الشَّرف العظيم والخير الكثير الذي يناله العبد بذكره لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومن أَمَارات وعلامات عناية العبد بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنه إذا استيقظ من نومه بادر إلى ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا سيما إذا كان هذا الذِّكر متضمنًا الكلمات الأربعة التي هي أحب الكلام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ألا

وهي: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[١]، فإنَّ هذه الكلمات من أهم الكلمات التي ينبغي أن يُبادر المرء إليها إذا قام من نومه، ومَن كانت هذه صفته؛ فلا شك أنَّ دعاءه مُستجاب، وصلاته مقبولة، واستغفاره مُستجاب، كما سيأتي في حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وهذا كلّه يدل على شرف الذِّكر ومكانته في هذا الوقت.

ومن الأذكار التي يُشرع للمسلم أيضًا أن يقولها عند قيامه من نومه: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[٢]، فالنوم موتة صُغرى، والاستيقاظ من النوم حياة بعد موتة، ولذلك يُشرع للعبد أول ما يقوم من نومه أن يحمد الله على هذه الحياة، فكم من أُناسٍ ناموا على فُرشهم وكانت هي النومة التي لا قومة منها إلَّا إلى القبر، فعلى العبد أول ما يقوم من نومه أن يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثمَّ يعتني بالأذكار العظيمة المأثورة عن النَّبي الكريم ﷺ، ومن أعظم هذه الأذكار وأجمعها في باب الذِّكر والدُّعاء والثَّناء والتَّوحيد والإيمان؛ هذا الدُّعاء العظيم والذِّكر المبارك، الذي أورده المصنف والذي كان يقوله نبينا ﷺ إذا قام يتهجد من اللَّيل، وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث، أنَّ النَّبي ﷺ كان يستفتح به صلاته من اللَّيل.

ويُعدُّ -هذا الحديث- متنًا جامعًا في الاعتقاد والتَّوحيد والإيمان، فقد حوى أصول الإيمان، وقواعد الملة، وأصول الدِّيانة، وإذا وُفق المسلم للعناية بهذه الكلمات العظيمة كلّ ليلةٍ في جوف اللَّيل؛ مُستحضرًا ما دلَّت عليه هذه الكلمات من معانٍ، وما تضمنته من العقائد والإيمانيات؛ كان بذلك مجددًا لإيمانه في كلِّ ليلةٍ، فقد قال ﷺ: «إنَّ

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٧)، وانظر: «فضائل الكلمات الأربع».
(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٤).

الإيمان لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ؛ فَسَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمان فِي قُلُوبِكُمْ»[1]. وهذا الدُّعاء العظيم من أعظم ما يكون به تجديد الإيمان، بل وأنفعه في هذا الباب، لا سيما عندما يقوم المرء وقد أخذ حظه ونصيبه من النوم والرَّاحة؛ ليصلي ما كتب الله له في جوف اللَّيل، مُستفتحًا صلاته بهذه الكلمات العظيمة النَّفع، مُتأملًا معاني ودلالات الجُمل التي اشتمل عليها هذا الحديث، والتي بلغت اثنتي وعشرين جُملة، وهي جُمل عظيمة في تقرير الاعتقاد وتثبيت الإيمان وتعميق التَّوحيد في القلب. والعبد إنَّما ينتفع بهذه الكلمات الانتفاع العظيم: إذا وُفِّق للعناية بفَهم المعنى والدِّلالات التي تضمنته هذه الكلمات المباركات؛ من بيانٍ للتوحيد وتقريرٍ له وإيضاح لأصول الإيمان وقواعد الشَّريعة، بأتم وأبلغ ما يكون من الإيضاح والبيان.

وأكتفي في بيان ما يتعلق بهذا الدُّعاء بالإحالة إلى رسالةٍ مطبوعة بعنوان: «**المقالة المفيدة شرح حديث جامع في العقيدة**»، وهي رسالة خُصصت في شرح هذا الحديث، وهي نافعة في بابها بإذن الله.

قَوْلُهُ: **(أنت نور السَّماوات والأرض: معناه: ذو نور، أي: خالقه، وقيل: نور الدُّنيا في الشَّمس والقمر، وقيل: منوِّر قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة)**. وهذا الذي ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو لازم النور الذي هو اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي يتضمن النور الذي هو صفته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فـ «النور» يُضاف إلى الله اسمًا، ويضاف إليه وصفًا؛ كما أنه يوصف بالسَّمع والبصر والعلم، فإنه كذلك يوصف بأنه نور جَلَّ وَعَلَا، فالله نور، ووحيه نور، وشرعه نور، ونبيه ﷺ نور؛ حيث قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه:

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٦) رقم (٨٤)، والحاكم (٥) وصححه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وعبادته وطاعته نور، وثمرة طاعته نور في الطَّائعين؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [التحريم: ٨].

فالذي ذكر المصنِّف هو أثر من آثار النور الذي هو اسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفته جَلَّ وَعَلَا.

قَوْلُهُ: (وقوله: «قَيُّومُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ». أي: القائم بأمرهما).

اسم الله القيوم، وهو ثابت في القرآن الكريم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهو يدل على هذا المعنى، وهو كمال تدبير الله للخَلق، وتصريفه لهم، وقيامه بشؤونهم، كما يدل على قيامه بنفسه. فالقيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، فالأول يدلُّ على كمال غناه، والثَّاني يدل على كمال قدرته وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ◈

ما يُقال عند القيام من النوم

(روى عُبَادَةُ بنُ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي. ودَعَا؛ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ». أخرجه البخاري[(١)].

(١) أخرجه البخاري (١١٥٤).

وقوله «تعَارَّ»: -بتشديد الرَّاء- قيل: استيقظ، وقِيلَ: تكلَّم وتمطَّى وَأَنَّ، وقيل: انتبه، وقال بعضُهم: تمطى بصوتٍ، قال البعضُ: وهو أَبْيَنُ وأَشْبَهُ بالمعنى).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ**). -بتشديد الرَّاء-، أي: استيقظ من اللَّيل، سواء حصل له تمطٍّ في استيقاظه أو أنين أو صوت أو لا؛ فإنَّ أول ما ينبغي أن يبادر إليه ذكرُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حمدًا وثناءً وتهليلًا وتعظيمًا وتنزيهًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**فَقَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**). هذه هي كلمة التوحيد التي من أجلها قامت السموات والأرض ولأجلها خلقت المخلوقات، وأوجدت الجنة والنار. وأهل هذه الكلمة هم أهل السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وعليها قيام دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فـ «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» تعني توحيد الله وإخلاص الدِّين له جلَّ في عُلاه، وهي قائمة على ركنين: النفي والإثبات، نفي العبودية عن كل ما سوى الله، وإثبات العبودية بكل معانيها لله وحده.

وقوله: «**وحده**» تأكيد للإثبات، وقوله: «**لَا شَرِيكَ لَهُ**» تأكيد للنفي، وهذا من الاهتمام بمقام التوحيد، وقوله ﷺ: «**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**». هذه براهين للتوحيد، ودلائل على وجوب إخلاص الدِّين له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا**

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ). هذه الكلمات الأربع هي أحب الكلام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره، أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**أحبُّ الكلام إلى اللهِ أربع: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»(١).

قَوْلُهُ: (سُبْحَانَ اللهِ). تقديسٌ لله وتنزيهه له عن كلِّ ما لا يليق به من النَّقائص والعيوب ومماثلة المخلوقات، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

قَوْلُهُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ). ثناء على الله مع حبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الجمع بين التَّسبيح والحمد جمع بين التَّنزيه والإثبات، فالتَّسبيح تنزيه لله عن النقائص، والحمد إثبات الكمال له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). توحيدٌ لله وإفراد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، وإخلاص الدِّين له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبراءة من الشرك وخلوص منه.

قَوْلُهُ: (وَاللهُ أَكْبَر). تعظيمٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإقرارٌ بأنَّ الله جَلَّ وَعَلَا الكبير الذي لا أكبر منه، كما في حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال له النَّبي ﷺ: «**مَا يُفِرُّكَ أَنْ تَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إِلَهٍ سِوَى اللهِ؟**». قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: ثُمَّ تَكَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا تَفِرُّ أَنْ تَقُولَ: اللهُ أَكْبَرُ، وَتَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرَ مِنَ اللهِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: لَا(٢).

قَوْلُهُ: (وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ). استعانةٌ بالله وبراءة من الحول والقوة إلا به، والإتيان بها في هذا الموضع مناسب غاية المناسبة؛ لأنك إذا قلت: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»، فحينها تكون قد تبرأت

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣)، وحسنه الألباني.

إلى الله من حولك وقوتك، طالبًا المدد والعون من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن أنسب الأوقات لقول هذه الكلمة عندما تقوم من النوم، فتطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعينك؛ لأن أمامك أعمال وأمور وطاعات عظيمة ومصالح دنيوية متنوعة يحتاج قيامك بها إلى معونة ومدد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيناسب أن تبادر أول ما تقوم من النوم أن تقولها، وذلك بعد الثَّناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقديسه وتكبيره وتوحيده جلَّ في عُلاه.

قَوْلُهُ: (**ثمَّ قال: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ودَعَا**). ولفظ الحديث في بعض مصادره: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي أو دَعَا**»، و«**أَو**» هنا ليست للشك، وإنَّما للتنويع، والمراد: سواء استغفر أو دعا فدعاؤه مُستجاب؛ استغفارًا كان أو سؤالًا. وهذا فيه حثٌّ على المبادرة إلى الدُّعاء بعد هذه الكلمات؛ استغفارًا وسؤالًا بهذه اللَّفظة التي نُصَّ عليها في الحديث: «**اللهم اغْفِرْ لي**»، ثمَّ يسأل الله ما شاء من خيريِ الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ دعوته مُستجابة.

قَوْلُهُ: (**اسْتُجِيبَ لَهُ**). وهنا أنبه على أمرٍ يفرط فيه كثير من النَّاس، فبعض النَّاس يسأل عن شخصٍ مُستجابِ الدَّعوة، ليطلب منه أن يدعو له، ويفرط في مثل هذه الأمور، قيل لأحد الصَّالحين: أتعرف أحدًا مُستجاب الدَّعوة؟ قال: أعرف مَن يجيب الدُّعاء.

ودخل طاوس بن كيسان على مريض يعوده، فقال لطاوس: يا أبا عبد الرحمن! ادعُ لي، فقال: ادعُ لنفسك؛ فإنه يجيب المضطر إذا دعاه[1]. أي: دعوتك لنفسك دعوة مضطر، ودعوة المضطر مستجابة؛ لأنَّ فيها إلحاحًا وقوة إقبال عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذا ينبغي على المسلم أن يحرص على مثل هذه الأوقات

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٧١).

المباركة، ويحرص على هذه الأذكار العظيمة في هذه الأوقات بين يدي دعائه ومناجاته لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يعود نفسه أول ما يستيقظ من نومه أن يقول هذه الكلمات المباركات.

نقل الحافظ ابن حجر في كلامه على هذا الحديث عن الفربري -وهو من رواة صحيح البخاري- قال: «أجريت هذا الذِّكر على لساني عند انتباهي، ثمَّ نمت فأتاني آتٍ فقرأ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَصُدُّونَ..﴾ [الحج: ٢٤] الآية»[1].

ولا شك أنَّ العناية بهذا الذكر والمواظبة عليه مِن الهداية إلى الطَّيب من القول، وأيضًا من الهداية إلى صراط الحميد، فينبغي على العبد المؤمن أن يهتم به، فيقوله بعد أن يقوم من نومه، ثمَّ يستغفر الله ويدعو ويتوضأ ويصلي، كما جاء في الحديث: «**فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ**».

فالحاصل: أنَّ العناية بهذه الكلمات المباركات عند أول ما يستيقظ المرء من نومه، من أعظم ما ينبغي أن يُعنى به المرء المسلم في حياته اليومية. ◈

ما يُقال عند دخول الخلاء

(روى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ كان إذا دَخَلَ الخَلاءَ قَالَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ». متفق عليه[2].

الخُبُث: بضمِّ الخاء جمعُ خبيث، والخبائث: جمع خبيثة، يريدُ ذكورَ الشياطينِ وإناثَهم، وعامّة المُحَدِّثين يُسَكِّنون الباءَ، وَغَلَّطَهُمُ الخَطَّابي

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٤١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢)، ومسلم (٣٧٥).

فيه[١]، وَصَوَّبَ ذلك غيرُه).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما يُقال عند دخول الخلاء). والمراد بـ «الخلاء»: الموضع الذي يقضي فيه المرء حاجته، وقد جاءت السُّنَّة النَّبوية بما يقال عند دخول الخلاء، وإذا قاله المسلم تحقق له الحفظ والعافية والستر؛ فإن ما يُؤْثر عن نبينا ﷺ ممَّا يُقال عند قضاء الحاجة فيه ستر لابن آدم، بل وفيه غفران لذنوبه. ومن قضى حاجته عليه أن يذكر نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بأن يسر له هذا الطعام وهذا الغذاء؛ فانتفع به بدنه، وصحَّت به عافيته، ثمَّ مَنَّ الله عليه بإخراجه بهذا اليُسر، فلم يبق في بدنه سمومًا مضرة، فيستغفر الله لعجزه عن شكر هذه النِّعم التي أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها عليه، فيقول كما جاء في السُّنَّة النَّبوية المطهرة: «غُفْرَانَكَ»[٢]، فيبدأ عند دخوله لقضاء الحاجة بالبسملة والتَّعوذ، ويختم ذلك بطلب المغفرة، وهذا من عظيم الهدي النَّبوي، وبركة هذه السُّنَّة العظيمة.

قَوْلُهُ: (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الخُبُثِ وَالخَبَائِثِ). إمَّا بتسكين الباء أو ضمِّها، والمراد بـ «الخُبث»: ذكران الشَّياطين، و«الخَبائث»: إناثهم.

---

(١) انظر: «إصلاح غلط المحدثين» للخطابي (ص: ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وابن ماجه (٣٠٠)، وصححه الألباني.

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث بإسنادٍ قال عنه الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري»[١]: على شرط مسلم، زيادة البسملة في أوله: «**بِاسْمِ اللهِ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ**».

ويشهد لهذه الزيادة قول النبي ﷺ: «**سَتْرُ مَا بَيْنَ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إذا دَخَلَ الْكَنِيفَ أَنْ يَقُولَ: بِاسْمِ اللهِ**»[٢].

فذكر الله عند دخول الخلاء سترٌ للعبد وصيانة وحفظ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]. أي: الذين يذكرون الله، ويواظبون على ذكر الله في الأحوال كلها، ومن ذلك عند قضاء الحاجة.

ما يُقال بعد الفراغ من الوضوء

(روى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الوضوء، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» قَالَ فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ! فَإِذا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ فَنَظَرْتُ فَإِذا عُمَرُ قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ حِينَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». انفرد به مسلم[٣]).

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٠٦)، وابن ماجه (٢٩٧)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**ما يقال بعد الفراغ من الوضوء**). الوُضوءُ طهارةٌ لبدن المرء، وقد جاء في السُّنَّة عن نبينا ﷺ ما يشرع للمسلم أن يقوله عقب الوضوء تكميلًا لعبوديته.

قَوْلُهُ: (**كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ فَجَاءَتْ نَوْبَتِي**). التَّناوب بين الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في رعاية الإبل له مقصد جليل يدلُّ على همتهم العالية، وعنايتهم الكبيرة بملازمة النَّبِيّ ﷺ، وأخذ الأحاديث عنه والتَّفقه عليه، مع عدم فوات مصالحهم الدُّنيوية، فجمعوا بين الخيرين: القيام بهذه المصالح بالتَّناوب عليها، والحضور في مجلس النَّبِيِّ ﷺ.

وأيضًا مَن فاتته فائدة من كلام النَّبي ﷺ وقت نوبته بلَّغه تلك الفائدة رفيقُه وصاحبُه الذي ناب عنه، وهذا ممَّا يدل على الهمة العالية والتنظيم لأوقاتهم، ولعل الجادين وأصحاب الهمم العالية يستفيدون من مثل هذه التَّجارب المباركة.

قَوْلُهُ: (**فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ**). أي: رددت الإبل إلى مراحها، وهو المكان الذي تبيت فيه. (**بِعَشِيٍّ**). أي: ما قبل غروب الشَّمس.

قَوْلُهُ: (**فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ**). أي: لا يلتفت قلبه وقت صلاته إلى أمور الدُّنيا، بل يكون مُقبلًا على الله صادقًا في التجائه إليه جَلَّ وَعَلَا، **ومقبلًا بوجهه**. أي: لا يلتفت بوجهه وبصره هنا وهناك، بتتبع الرَّائح والغادي، بل بصره موضع سجوده.

قَوْلُهُ: (**إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**). وهذا فيه الثَّمرة العظيمة للطهارة

والصَّلاة والعناية بهما، وأنهما من موجبات الجنة والفوز برضا الله.

قَوْلُهُ: (**قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ!**). أي: فرح وسُرَّ بهذه الفائدة العظيمة الثَّمينة التي سمعها من النَّبيّ ﷺ، فعبَّر عن إعجابه وسروره بها بقوله: «**مَا أَجْوَدَ هَذِهِ!**» مغتبطًا فرحًا مسرورًا.

قَوْلُهُ: (**فَإِذا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ**). لم يذكر له الفائدة الأخرى مباشرة؛ وذلك من أجل تحريك الرَّغبة والتَّشويق إليها، وقوله: «**أجود**» فيه أن الأعمال الصَّالحة متفاضلة، وأن المسلم ينبغي عليه أن يحرص على فقه هذا الباب حتى تتحقق له المنافسة ونيل المراتب واكتساب الفضائل.

قَوْلُهُ: (**فَنَظَرْتُ فَإِذا عُمَرُ قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ حِين جِئْتَ آنِفًا**). أي: أنَّ الفائدة الأولى قد فاتتك ولم تدركها.

قَوْلُهُ: (**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ: فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ**). أي: يأتي به تامًّا مكملًا لا ينقص منه شيئًا.

قَوْلُهُ: (**ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**). هذا جمع بين الطَّهارتين: الحسية والمعنوية، فطهارة الظَّاهر بالوضوء، وطهارة الباطن بالتَّوحيد بنوعيه: توحيد المُرسِل سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بإخلاص الدِّين له، وتوحيد المُرسَل ﷺ بتجريد المتابعة له.

ولهذا ينبغي أن يعلم أنَّ هذا التَّشهد سواء قِيلَ في هذا الموضع أو في أي موضع، لا يُؤتى به قولًا مجردًا، وإنَّما يُؤتى به تجديدًا للتوحيد وتوثيقًا لعراه؛ إذ هذا هو المقصد مِن الأذكار النَّبوية المأثورة عن النَّبي ﷺ، فليست ألفاظًا مُجردة تُقال، بل هي ألفاظ مُتضمنة لأجلِّ المعاني وأعظم المقاصد وأنبل الغايات، ولهذا ينبغي على مَن

يوفقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للإتيان بهذه الكلمات المباركات في أوقاتها وَفق السُّنَّة، أن يستحضر ما دلَّت عليه من معانٍ، وأن يحقق ما دلَّت عليه من مقاصد جليلة وغايات نبيلة.

قَوْلُهُ: (**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**). تعني: إخلاص الدِّين لله وإفراده وحده بالعبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبراءة من الشِّرك والخلوص منه.

قَوْلُهُ: (**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**). أي: تجريد المتابعة له ﷺ؛ وذلك بتصديق أخباره، والامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه. فشهادة أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، تعني: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهى عنه وزجر؛ فإنَّ الرُّسل الكرام بُعثوا ليُطاعوا، وتُمتثل أوامرهم، ويُنتهى عمَّا نَهَوْا عنه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء: ٦٤].

قَوْلُهُ: (**فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ؛ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ**). قال الحافظ ابن حجر: «وهذا زائد على مطلق دخول الجنة، ويشهد له ما رواه النسائي بإسناد صحيح، من حديث معاوية بن قرة عن أبيه مرفوعًا في أثناء حديث: «**أما يسرك أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة؛ إلا وجدته عنده يسعى يفتح لك**»[1].

وزاد الترمذي بعد التشهد: «**اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِينَ**»[2]، والتوبة طهارة للباطن عن أدران الذنوب، والوضوء طهارة للظاهر عن الأحداث المانعة عن التقرب إلى الله، ولذا ناسب الجمع بينهما.

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥)، وصححه الألباني.

وعليه فالسُّنَّة أن يقول المرء بعد وضوئه: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، اللهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ. ◈

ما يقول عند الخروج إلى الصَّلاة

(روى عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَيْقَظَ رسولُ اللهِ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، **فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بستِّ رَكَعَاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَهُوَ يَقُولُ: «اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا». انفرد به مسلم[1].**

قوله: «واجْعَلْ في قلبي نورًا وفي بَصَري نورًا وفي سَمْعي نورًا...» الحديث. النور: الهداية والبيان وضياء الحقّ، وقيل: يُحتمل أن يريدَ الرِّزقَ الحلالَ، وقُوَّةُ هذا الإعطاء به الطَّاعةُ).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**ما يقول عند الخروج إلى الصَّلاة**). ومن المعلوم أنَّ الصلاة عِماد الدِّين، وهي أعظم أركانه بعد الشَّهادتين، وهي نور وضياء كما صحَّ الحديث بذلك عن نبينا ﷺ، قال: «**والصَّلَاةُ نُورٌ**»(١)، وقد تقدم عند المصنف، وجاء في حديث آخر: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا؛ كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ**»(٢)، فالصَّلاة نور.

وقد جاءت السُّنَّة بمشروعية الدُّعاء بطلب النور عند الخروج إلى هذه الصَّلاة التي هي نور، وهذا من تمام التَّوافق، وجميل المناسبة؛ فالمسلم وهو خارج إلى صلاته التي هي نور، يسأل الله أن يعظم حظه من هذا النور في كلِّ أجزائِه وفي جميع ذرات بدنه؛ في ظاهره وباطنه، بل ومن جميع جهاته: من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فالمقصود أن يكون النور محيطًا به من كلِّ جوانبه، وهو خارج إلى صلاته التي هي نور، ولا شك أنَّ الدَّعوات النَّبوية المأثورة عن نبينا ﷺ في الأوقات المعيَّنة لها تعلق بتلك الأوقات أو تلك الأحوال التي تُقال فيها.

قَوْلُهُ: (**عن عَلِيّ بْن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **عن أبيه أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ** ﷺ)، أي: في بيت خالته ميمونة زوج النَّبيِّ ﷺ، وكان غرضه من ذلك أن ينظر ويرقب صلاة النَّبيِّ ﷺ؛ ليتفقه ويرى عبادة النَّبيِّ ﷺ من اللَّيل، فينظر متى يقوم وينظر إلى وضوئه وذِكره ودعائه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

ومناجاته وعدد ركعاته وقيامه، فنام تلك اللَّيلة عند خالته ميمونة من أجل التَّعلُّم والتَّفقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعلوم أنَّ النَّبيّ ﷺ مات وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قارب الاحتلام ولم يبلغ بعد، أي: كان في الثَّالثة عشرة أو الرَّابعة عشرة من عمره، ومع ذلك فقد نقل للأُمة علمًا كثيرًا وخيرًا عظيمًا ممَّا سمعه ورواه من أحوال النَّبيّ ﷺ وأفعاله -صلوات الله وسلامه عليه-، وكان عالمًا فقيهًا بصيرًا، وقد دعا له النَّبي ﷺ بذلك؛ حيث قال: «**اللهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]، فأجاب الله دعاءه، وهذا العلم الذي حصَّله ابن عباس هو بعد توفيق الله، ثمرة الصَّبر والمكابدة في نيل العلم وتحصيله.

وهنا لا بد أن نتنبه -وأخص بذلك صغار السِّنّ- إلى هذا المسلك العالي الرفيع من شباب الصَّحابة، وهممهم العالية، فهذا الصَّحابي الجليل صاحب الهمة العالية في هذا السِّنِّ المُبكر في الثانية عشر من عمره تقريبًا، يأتي إلى بيت خالته ميمونة، ليَبيت في بيت النَّبي ﷺ؛ ليرقب صلاته في اللَّيل، وهذا الارتقاب للصلاة في اللَّيل يحتاج إلى انتباه وتيقظ عند أي حركة، فليأمل الشاب في هذه الهمة العالية، وليفكر في نفسه وهمته، وليكن نظره إلى حال هؤلاء الأخيار نظرًا يُحرك من نفسه الاقتداء بهم، والسَّير على نَهجهم، فإذا وفِّق لذلك نال خيرًا عظيمًا.

قَوْلُهُ: (**فَاسْتَيْقَظَ رسول الله وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] **فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ**)، وقراءة هذه الآيات بعد الاستيقاظ من النوم مع التَّدبر والتَّأمل لا شك أنَّ فيه نفعًا عظيمًا؛ لأنَّ قومة الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣).

من نومته في هجعة النَّاس، وسكون الكون والهدوء العظيم في ذلك الوقت، وحصول الرَّاحة للبدن وفراغ القلب تاليًا هذه الآيات يفتح بابًا للتأمل في هذه المخلوقات العظيمة الدَّالة على عَظمة الخالق، ممَّا يُثمر في قلب المتأمل تعظيمًا للخالق وتسبيحًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فيثمر ثمرة عظيمة، ثمَّ يقبل القلب بعد ذلك على الدُّعاء والسُّؤال ثمَّ تأتي إجابة الدُّعاء، فيمضي المرء مع هذه الآيات العظيمة متأملًا في مضامينها ومعانيها، بل وتزيد من رغبته في الطَّاعة، وقوة إقباله على العبادة، وقيام اللَّيل.

قَوْلُهُ: (**ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ**).

قال ابن القيم: «ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة؛ فإما أنه كان يفعل هذا تارة، وهذا تارة، وإما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس، وهو الأظهر لملازمتها له، ولمراعاتها ذلك، ولكونها أعلم الخلق بقيامه بالليل، وابن عباس إنما شاهده ليلة المبيت عند خالته، وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه بالليل، فالقول ما قالت عائشة»(١).

قَوْلُهُ: (**ثُمَّ انْصَرَفَ، فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ، كُلّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ**). أي: أنَّ عدد الرَّكعات من غير الوتر ست ركعات، وبين كلِّ ركعتين كان ينام ثمَّ يتوضأ ويَستاك ويقرأ هذه الآيات، لكن النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «هذه الرواية فيها مخالفة لباقي الروايات في تخليل النوم بين الركعات وفي عدد الركعات، فإنَّه لم يَذكر في باقي الروايات تخلل النوم، وذكر

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣١٨).

الرَّكعات ثلاث عشرة»[١].

قَوْلُهُ: (فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فخرج إلى الصلاة، وَهُوَ يَقُولُ: اللهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا). وقد تقدم أنَّ هذه الدَّعوات مناسبة تمامًا للخروج إلى الصَّلاة[٢]؛ لأنَّ الصَّلاة، نور فيناسب تمامًا في خروج المسلم إلى صلاته أن يطلب بهذه الدَّعوات المباركات هذا النور؛ ليكون في كلِّ أجزائه، بل وليكون محيطًا به من كلِّ جهاته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان النبي ﷺ يبالغ في سؤال ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، حتى يقول: «واجعلني نورًا» فسأل ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن يجعل النور في ذاته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجُملته نورًا»[٣]. ◈

روى الشَّعْبيُّ عن أُمِّ سَلَمَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إذا خَرَجَ مِنْ بَيتِهِ، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللهُمَّ إِنَّا نعُوذُ بِكَ من أن نَزِلَّ

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ٥١).

(٢) قال الوالد الشيخ عبد المحسن البدر -حفظه الله- في تعليقه على هذا الحديث من شرحه لسنن أبي داود: «جاء في الخروج إلى صلاة الفجر، لكن الذي يبدو أنه يمكن أن يكون في غيرها، ولهذا يذكرونه في الخروج في جميع الصلوات، وهذا ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول آداب المشي إلى الصلاة؛ أنه يدعى به عن الخروج إلى الصلاة».

(٣) الوابل الصيب (١١٤).

أَوْ نَضِلَّ، أَوْ نَظْلِمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَينا». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح[1].

• الشرح •

هذا في كل خروج من المنزل سواء خرج للصلاة أو لغيرها من مصالحه الدِّينية أو الدُّنيوية.

وجاء في بعض المصادر: «**بِاسْمِ اللهِ تَوَكَّلتُ عَلَى اللهِ، اللهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ أنْ أضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[2].

وهذا الدُّعاء مناسب أن يقوله المسلم في كلِّ مرةٍ يخرج فيها من بيته، فيقوله متوكلًا على الله، ملتجئًا إليه، مفوضًا أمره إليه؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ المرء إذا خرج من بيته، فإنه سيلاقي النَّاس ويختلط بهم، والنَّاس أجناس في تعاملاتهم وأخلاقهم، ففيهم الضَّال والمهتدي، وفيهم الظَّالم والعدل، وفيهم ذو الخُلُق الجميل وسيئ الخُلُق، وفيهم المعتدي والمُسالِم، فعندما يلتقي بالناس قد لا يَسلم من شرٍّ وزللٍ أو نحو ذلك، فشُرع للمسلم في كلِّ مرةٍ يخرج فيها من بيته أن يدعو الله بهذا الدُّعاء، فيسأل الله أن يسلمه من أن يكون منه شيء من الشَّر أو الأذى تجاه النَّاس، أو أن يكون من النَّاس شيء من هذه الشرور تجاهه، فيَسلم

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٤)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢٣٨٣)، والمعجم الكبير (٧٢٦).

من النَّاس ويَسلم النَّاس منه، ولهذا كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دعائه: «اللهم سَلِّمني وسلِم مِنِّي»(١)، وهو بمعنى هذا الدُّعاء، ولكن هذا الدُّعاء أجمع وأنفع، وبعض العوام يقولون في دعائهم: «اللهم لا تسلطنا ولا تسلط علينا»، أي: لا تُسلطنا على النَّاس ولا تسلط النَّاس علينا بالأذى والعدوان، لكن دعوات النَّبيّ ﷺ أجمع وأتم؛ فقد تناولت ما يتعلق بالدِّين حيث قال: «**أنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ**»، وتناولت ما يتعلق بالدُّنيا والمصالح الدُّنيوية حيث قال: «**أن أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ**»، وتناولت ما يتعلق بالمعاملات بين النَّاس والاختلاط بهم حيث قال: «**أن أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»، فهي دعوات جامعة شاملة مباركة. ◈

ما يُقال عند الصَّباح

روى شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ: اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. إذا قَالَهَا حين يُمْسِيَ فَمَاتَ؛ دَخَل الجَنَّةَ -أَو كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ-، وإذا قَالَهَا حين يُصْبِحَ، فمات يومه...» مثلَه. انفرد به البخاري(٢) وغيره.

وقوله: «أبوءُ لكَ بنعمتِكَ»: قال الهَرَوي: أُقِرُّ بها وأُلزمها نفسي، وأصْل البَوْء: اللزوم، وأبوءُ لك بذنبي: أي: أعترف طوعًا: أي رجعتُ إلى الإقرار بعد الإنكار.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

• الشرح •

قَوْلُهُ: **(ما يُقال عند الصَّباح)**. إدراك المرء للصباح يُعد نعمة عظيمة من نعم الله على العبد؛ إذ يَسَّرَ له الربّ جَلَّوَعَلَا أن يكون ممَّن أدرك الصَّباح وكان من المصبحين، فكم من إنسانٍ بات على فراشه ولم يصبح، فإذا أصبح المرء وهو بالصِّحة والعافية والنِّعمة والرَّخاء، فليذكر نعمة المنعم جَلَّوَعَلَا عليه، والذي به أصبح، وبفضله أدرك الصَّباح وليقل: «**اللهم بك أصبحنا...** » وليقل: «**أصبحنا وأصبح المُلكُ لله والحمد لله...**»، فيفتتح صباحه ويستهل يومه بالذِّكر والثَّناء على المُنعِم، وقد جاءت السُّنَّة النَّبوية المطهرة بجُملة من الأذكار العظيمة التي يشرع أن يستهل بها المسلم يومه ويفتتح بها صباحه، لينسحب ذلك على يومه كله بالنَّشاط والخير والبركة، فالصَّباح قيمته عظيمة، فلا ينبغي أن يُضيِّع المرء على نفسه هذه الفرصة الثَّمينة، بل عليه أن يغنم صباحه بذكر ربّه وحمده، والعناية بالمأثور عن النَّبيّ ﷺ في هذا الباب.

وهذه الأذكار المأثورة عن النَّبي ﷺ فيها من الخير والبركة ما يعود على المرء بالعوائد الحميدة والخيرات المباركة في يومه؛ بل في دُنياه وأُخراه، وإذا استهل المسلم صباحه بهذه الأذكار؛ حُفظ ووقي وكُفي، وأُعين وسُدد في أعماله، وبُورك له في يومه، وأُقيلت عثرته، وحفظ له يومه بإذن الله.

ومن جميل ما يُروى في بيان أهمية حفظ الوقت في الصَّباح الباكر بذكر الله، ما جاء عن أبي وائل شقيق بن سلمة حيث قال: غدونا على عبد الله بن مسعود يومًا بعد ما صلينا الغداة، فسلمنا بالباب، فأذن لنا، قال: فمكثنا بالباب هنية، قال: فخرجت الجارية، فقالت: ألا تدخلون،

فدخلنا، فإذا هو جالس يُسبح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذن لكم؟ فقلنا: لا، إلَّا أنَّا ظننا أن بعض أهل البيت نائم، قال: ظننتم بآل ابن أم عبد غفلة، قال: ثم أقبل يُسبح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، فقال: يا جارية انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي لم تطلع، فأقبل يُسبح حتى إذا ظن أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية انظري هل طلعت؟ فنظرت، فإذا هي قد طلعت، فقال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا -فقال مهدي: وأحسبه قال- ولم يهلكنا بذنوبنا[(١)].

سبحان الله! قال هذا مع أنه في أول اليوم، لكن هذا من فقهه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأنَّ مَن بدأ أول اليوم بالذِّكر؛ حُفِظَ له اليوم كله، وقد قيل: «يومك مثل جملك إن أمسكت أوله تبعك أخره»؛ ولهذا ينبغي أن يحرص المؤمن على هذا الوقت الثَّمين **من طلوع الصُّبح إلى طلوع الشَّمس**؛ لأنَّ هذا وقت نزول البركات والخيرات وقسم الأرزاق، والنَّبي ﷺ قال: «**اللهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا**»[(٢)].

وخير ما يُغتنم فيه هذا الوقت المبارك ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بأنَّ يحرص المسلم على الأذكار المأثورة عن النَّبي الكريم ﷺ، وأن يأتي بها بألفاظها كما جاءت عنه، مُستحضرًا معانيها، محققًا ما دلَّت عليه من تعظيمٍ وتوحيدٍ وتنزيهٍ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقد أورد المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الموضع جُملة من الأذكار المأثورة في الصَّباح، بدأها بحديث سيد الاستغفار، حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ**»، وسمى النَّبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وصححه الألباني.

هذه الصِّيغة الواردة في هذا الحديث بهذا الاسم؛ لأنَّها أكملُ صيغه وأفضلُها؛ فإنَّ السَّيد من معانيه: المُقَدَّم على غيره، لحُسن صفاته وخصاله وخلاله، ولتميزه بالصِّفات الفاضلة الحسنة الطَّيبة، وهي صيغة عظيمة فيها من التذلل، والخضوع لله، والاعتراف له بالعظمة والربوبية، وكمال التَّدبير والتَّسخير، والإقرار بالعبودية والذُّلّ له، والاعتراف بالنِّعمة، والاعتراف بالتَّقصير في حقِّه وجنبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فحريٌّ بالمسلم ألَّا يُفوت هذا الأجر العظيم، وليستفتح يومه بهذا الاستغفار وليختتمه به، حتى يكون من أهل الجنة، لكن بشرط اليقين؛ كما جاء مصرحًا بذلك في بعض ألفاظ الحديث حيث قال ﷺ: «**مَن قَالها مُوقِنًا بِهَا**»[(١)]، فلا يكفي أن تُجرى ألفاظ الأذكار على اللِّسان فقط، بل لابد من استحضار المعنى واليقين، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[(٢)]؛ ولهذا إذا دعا المسلم بهذه الدَّعوات أو بغيرها، فعليه أن يدعو بحضور قلب، ويقين وثقة بالله، وحُسن التجاء إليه، وفَهم لمعاني ما يقول من أذكارٍ، وتحقيق لما دلَّت عليه من التَّعظيم والتَّمجيد والثَّناء والتَّوحيد.

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**). «**أنت ربي**»: هذا توحيد الربوبية، و«**لَا إِله إِلَّا أَنتَ**»: هذا توحيد الألوهية، ومِن لازمِ إقرارِ العبد بأنَّ الله وحده هو الرَّبّ: أن يفرده بالعبادة وأن يخلص الدِّين له، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ**

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم (١٨١٧)، وحسنه الألباني.

ﭐلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، فالعبادة حقٌّ لله، المتفرد بخلق هذه الكائنات، وإيجاد هذه المخلوقات، لا شريك له، فكما أنه الرَّبّ وحده، فالواجب أن يفرد بالعبادة وحده، وأن لا يُصرف شيء من العبادة إلَّا له.

ثمَّ أكد هذا المعنى العظيم بقوله: «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**». أي: أوجدتني من العَدم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ١- ٢]، فالله أوجد هذا الإنسان وخلقه وأمده بالسَّمع والبصر والصِّحة والعافية والغذاء والمسكن؛ ليكون عبدًا لله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قَوْلُهُ: (**وَأَنَا عَبْدُكَ**). أي: قائم بما خلقتني لأجله، وأوجدتني لتحقيقه، فأنا عابد لكَ، مطيع أمرك، قائم بما أمرتني به.

قَوْلُهُ: (**وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ**)، أي: متمسك بما عاهدتكَ، وواعدتكَ عليه، من امتثال أمرك، والقيام بطاعتك، ولزوم عبوديتك.

قَوْلُهُ: (**مَا اسْتَطَعْتُ**). أي: قدر استطاعتي وطاقتي؛ إذ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**»[1].

قَوْلُهُ: (**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ**). أي: أعوذ بك من شرِّ كلِّ أعمالي السَّيئة التي وقعت مني، والآثام والمعاصي الموجبة للعقوبة، وهذا التَّعوذ من شرِّ ما صنع العبد يشمل التَّعوذ من آثاره، وعواقبه الوخيمة،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

ويشمل التَّعوذ من العود إلى مثله من الأعمال السَّيئة، فالعبد يسأل ربَّه أن يعيذه، وأن يقيه من هذه الأعمال، ويجنبه الوقوع فيها.

قَوْلُهُ: (**أَبُوءُ لَكَ بِنعمَتِكَ عَلَيَّ**). مفرد مضاف، والقاعدة: أنَّ المفرد إذا أُضِيفَ؛ دلَّ على العموم، فيكون المراد: أبوء وأعترف بجميع نعمكَ عليَّ من صحةٍ وعافيةٍ وسمعٍ وبصرٍ وطعامٍ وسكنٍ وملبسٍ... إلى غير ذلك من نعم الله السَّابغة على عبده.

قَوْلُهُ: (**وَأَبُوءُ بِذَنبِي**). أي: أعترف وأقر بذنوبي وأخطائي وتقصيري.

وبوابة التوبة الإقرار بالذنب والاعتراف به، وهذا يفتح للعبد باب التَّوبة والإنابة.

قَوْلُهُ: (**فَاغْفِرْ لِي**). هذا هو المطلوب، وما قبله وسائل بين يدي هذا المطلوب، والمعنى: اغفر لي ذنبي وخطيئتي وزلتي.

قَوْلُهُ: (**فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**). هذا مصداق قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وفيه بيان إيمان العبد بأنَّ الله يغفر الذنوب مهما عظمت لا يتعاظمه ذنب، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

قَوْلُهُ: (**إذا قَالَهَا حين يُمْسِيَ فَمَاتَ؛ دَخَل الجَنَّةَ -أو كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ-، وإذا قَالَهَا حين يُصْبِحَ، فمات يومه... مثلَه**). وفي لفظ للبخاري: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ

يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[١]. وهذا فيه دليل على أن هذا الاستغفار بهذه الصِّيغة المباركة يشرع أن يقال ويواظب عليها مواظبة يومية في الصَّباح مرة، وفي المساء مرة، وأن يقوله المسلم عن يقين؛ ليفوز بهذا الموعود العظيم. ◈

(وروى أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ».

وَكَانَ أَبَانُ قَدْ أَصَابَهُ طَرَفُ فَالِجٍ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا حَدَّثْتُكَ، وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ، لِيُمْضِيَ اللهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ». أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح[٢]).

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث العظيم، الذي يبيِّن فضل هذا الدُّعاء «**بِاسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**»، والذي ينبغي على المسلم أن يحافظ عليه صباح كلِّ يوم ومساءه؛ لما له من فضلٍ عظيم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، وصحَّحه الألبانيُّ.

قَوْلُهُ: (**بِاسْمِ اللهِ**). الجار والمجرور هنا يتعلق بمحذوف مقدر يعرف من حال القائل، فإن كان قراءة: بسم الله أقرأ، وإن كان دخولًا: باسم الله أدخل، وإن كان خروجًا: باسم الله أخرج، وإن كان أكلًا: باسم الله آكل، وإن كان تعوذًا: باسم الله أستعيذ.

والمقام هنا مقام التَّعوذ والالتجاء إلى الله فقوله: «**بِاسْمِ اللهِ**». أي: باسم الله استعيذ، وأطلب منه العوذ، متيمنًا بذكر الله جَلَّ وَعَلَا الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السَّماء. وكما أنَّ هذا الذِّكر بعينه يفيد في هذا المقام حفظ العبد، فإنَّ فضله يندرج أيضًا تحت فضل الأذكار عمومًا، فذكر الله عمومًا حفظ للعبد، وأنَّ الذَّاكر لله في حِصنٍ حصين، وحرزٍ متين، فلا يضره شيء بإذن الله.

قَوْلُهُ: (**فَيَضُرَّهُ شَيْءٌ**). أي: لا يصيبه، حتى لو قدر مثلًا أنَّ نهشته حيةٌ أو لسعته عقرب، فإنه لا يضره سمُّها أو أذاها، فالمنفي هو حدوث الضَّرر، فيكون حاميًا وواقيًا للعبد ممَّا يضره.

قَوْلُهُ: (**وَكَانَ أَبَانُ**). هو راوي الحديث عن أبيه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: (**قَدْ أَصَابَهُ طَرَفُ فَالِجٍ**). أي: أنَّ الفالج أصابه في طرف بدنه، والفالج: هو شيء من الشَّلل يصيب بعض الأطراف، كأن يكون في اليد أو الرجل.

قَوْلُهُ: (**فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ**). أي: وهو يحدث بهذا الحديث، وكأنه يقول له: كيف تحدث بهذا الحديث الذي فيه: أن من قال هذه الكلمات؛ لم يضره شيء، وأنت أيها الراوي لهذا الحديث مصاب بهذا الفالج؟! فكأن نظرات عينيه تطرح هذا السؤال.

قَوْلُهُ: (**فَقَالَ لَهُ أَبَانُ: مَا تَنْظُرُ؟ أَمَا إِنَّ الْحَدِيثَ كَمَا قَدْ حَدَّثْتُكَ**). أي: لا تنظر إليَّ ويقع في نفسك ارتياب في الحديث، فإنَّ الأمر كما

حدثتك: مَن قال هذه الكلمات، لم يضره شيء، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ.

ومن عجيب أمر بعض الناس أن يُخضع هذه الأذكار أولًا للتجربة، ثمَّ بعد ذلك تكون القناعة، وهذه مصيبة، يكفي أنَّ النَّبي ﷺ قاله، فلا يُحتاج إلى أن يُنظر إلى تجارب الناس؛ فهو كلام الصَّادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَلَكِنِّي لَمْ أَقُلْهُ يَوْمَئِذٍ، لِيُمْضِيَ اللهُ عَلَيَّ قَدَرَهُ**). أي: لم أقله في اليوم الذي أصبت فيه بهذه الإصابة، وهذا يُستفاد منه أهمية المواظبة على هذا الذكر كلّ يومٍ، حتى تتحقق هذه الفائدة والثَّمرة في كلِّ يومٍ.

(وروى أبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رُسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ». انفرد به مسلم[1]).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**) جمع بين التَّنزيه والإثبات، فالتَّسبيح: تنزيه، والحمد: إثبات تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن النَّقائص والعيوب، وإثبات الكمال له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ**). فضلٌ عظيم مع أن هذا الذكر لا يأخذ إلَّا وقتًا يسيرًا من الذاكر.

قَوْلُهُ: (**أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**). أي: زاد عليه من الأذكار الأخرى المأثورة عن النَّبي ﷺ، وليس معنى «**زاد عليه**»، أن يقول: سبحان الله وبحمده

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٢).

مائة وعشرة مثلًا؛ بل هي مائة مرة في الصَّباح، ومائة مرة في المساء، وإنَّما الزِّيادة تكون من الأذكار الأُخرى: المقيدة، والمطلقة، أو التسبيح والذكر المطلق. ◈

ما يُقال عند سماع الأذان

روى سَعْد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غفرَ الله ذَنْبهُ». انفرد به مسلم[١].

• الشرح •

الأذان: هو كلمات مباركات يؤتى بها عند دخول وقت الصَّلاة؛ إيذانًا بدخوله، وهي كلمات عظيمة قائمة على التَّوحيد والتَّعظيم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتَّرغيب في الصَّلاة والحثِّ عليها والنِّداء لها وبيان ما فيها من فلاح وخير، فهي كلمات عظيمة، إذا أحسن المسلم الاستماع إليها، وقال مثل ما يقول المؤذن، مُردِّدًا معه ما يقول، وأتى بالأذكار المأثورة عن النَّبي ﷺ بعده، فُتحت له أبواب الخيرات، وفُتحت له أبواب الجنة، وكانت سببًا عظيمًا لطمأنينته في صلاته وخشوعه فيها وإقباله عليها بقلبه، وكثيرٌ من النَّاس يفرِّطون في هذا الأمر فيؤذن المؤذن ولا يلقون بالًا لسماع الأذان ولا للتَّرديد مع المؤذن، بل يبقون

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦).

في أحاديثهم وأعمالهم ومصالحهم، وهذا ممَّا يضعف همة المرء وإقباله على صلاته، وقد جاء في حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبي ﷺ قال: **«إذا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**(١).

فكيف يفوت المسلم على نفسه هذا الخير العظيم والفضل المبارك؛ ولهذا ينبغي للمسلم عند سماع المؤذن أن يتوقف عن حديثه حتى لو كان يتلو القرآن الكريم، يتوقف عن التِّلاوة ويردد مع المؤذن، والقاعدة في هذا الباب: «أنَّ أفضل عمل في كلِّ وقتٍ الأَوفق للسُّنة في ذلك الوقت»، فقراءة القرآن الكريم أجلُّ الأذكار وأعظمها شأنًا وأرفعها مكانة، لكن إذا أذن المؤذن، فإنه أفضل من التِّلاوة أن تستمع للمؤذن، وأن تقول مثل ما يقول، كما جاءت بذلك السُّنَّة المطهرة عن النَّبي ﷺ، فكيف إذًا بالأحاديث الخاصة، كثير من النَّاس يؤذن المؤذن وهم ماضون في أحاديثهم الخاصة وشؤونهم وأمورهم ولا يبالون بسماع المؤذن، فيفوتون على أنفسهم خيرًا كثيرًا.

وقد جاءت السُّنَّة بجملةٍ من الأذكار تتعلق بالأذان عند سماعه، سواء كان ذلك أثناءه أو بعد الفراغ من سماعه، من ذلك: أنَّ من السُّنَّة إجابة النداء ثم يُصلي المسلم بعد انتهاء الأذان على النَّبي ﷺ(٢)، ثم

(١) أخرجه مسلم (٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٤).

يقول: «**اللهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ**»[١]، وقد أخبر النَّبي ﷺ أنَّ مَن يقول ذلك بعد سماع الأذان حلَّت له شفاعة النَّبي ﷺ، ثم يدعو لنفسه بما شاء؛ لأن الدعاء حينئذٍ مستجاب، ففي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رجُلاً قال يا رسولَ الله إنَّ المُؤذِّنينَ يفضُلوننا. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قُلْ كَمَا يَقُولُونَ فَإِذَا انْتَهَيْتَ فَسَلْ تُعْطَه**»[٢].

وممَّا يُشرع للمسلم أن يقوله عند سماع الأذان ما جاء في هذا الحديث الذي ساقه المصنف رَحِمَهُ اللهُ، وهو حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -أحد العشرة المبشرين بالجنة-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**».

وجاء في رواية أخرى لهذا الحديث في صحيح مسلم، قال: «**وأنا أشهد**»[٣]، وموضع هذه الكلمات بعد قول المؤذن: «**أشهد أن لا إله إلَّا الله أشهد أن لا إله إلَّا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله أشهد أن محمدًا رسول الله**»، وقبل قوله: «**حي على الصلاة**»، هذا هو موطنها.

وقد جاء ذلك مصرحًا به في رواية للحديث في مستخرج أبي عوانة: «**مَنْ سَمِعَ الْمُؤَذِّنَ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا**»[٤]، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٤)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٤) أخرجه ابن خزيمة (٤٢٢)، وأبو عوانة (٩٩٥)، وإسناده جيد.

هو موضع هذا الذِّكر، ومَن قال ذلك؛ غفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له ذنبه.

«فهذه خمس سنن في الأذان: إجابته، وقول رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا، وسؤال الله تعالى لرسوله ﷺ الوسيلة والفضيلة، والصلاة عليه ﷺ، والدعاء لنفسه ماشاء»[1].

قَوْلُهُ: (**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**). هذه كلمة التَّوحيد، متبعة بتأكيد لها وتحقيق لمعناها، وهو قوله: «**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**».

قَوْلُهُ: (**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**). فيه الشَّهادة للنبي ﷺ بالعبودية والرِّسالة، فهو عبدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والعبد لا يُعبد، وإنَّما الذي يعبد هو الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ** ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦]، وهو ﷺ نبي، والنَّبي لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتبع، ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء: ٦٤].

فقول المسلم: «**أشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»، يُحقق له الوسطية والاعتدال، والبُعد عن الغلو والجفاء، فالشَّهادة للنبيِّ ﷺ بالعبودية، فيها سلامة العبد من الغلو، والشَّهادة له بالرِّسالة، فيها سلامته من الجفاء، والحقُّ وسط بين الغلو والجفاء والإفراط والتَّفريط.

قَوْلُهُ: (**رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا**). هذه الكلمات الثَّلاث هي أصول الدِّين الإسلامي، التي لا يقوم الدِّين إلَّا عليها، فالإسلام يقوم على هذه الأصول الثَّلاثة: الرِّضا بالله ربًّا، وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا، وبالإسلام دينًا. وعن هذه الأصول الثلاثة يُسأل كلُّ مَن مات إذا أُدرج في قبره، فيأتيه ملكان -كما جاءت بذلك السُّنَّة المطهرة عن نبينا ﷺ-

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص ١٠٣).

فيجلسانه، ويقولان له: مَن ربكَ؟ وما دينكَ؟ ومَن نبيكَ؟[(١)].

فهذه ثلاثة أسئلة توجه إليه عن هذه الأصول الثَّلاثة؛ ولهذا حَرِيٌّ بالمسلم أن يُكرر هذه الأصول في أيامه ولياليه، من خلال هذه الأذكار المشروعة التي تعين العبد على استحضارها حتى تتحقق في قلبه، وتتمكن من نفسه، ويتجدد بتكرارها إيمانه.

قَوْلُهُ: (**رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا**). يتناول الرِّضا به معبودًا بحقٍّ، ولا معبود بحقٍّ سِواه، فتصرف العبادة له وحده، ويُلتجأ إليه وحده، ويقرُّ بعظمته وجلاله وكمال صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه الخالق العظيم الملك المدبر لا شريك له في شيء من ذلك؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فالرِّضا به ربًّا يتناول ذلك كلَّه.

قَوْلُهُ: (**بِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**). والرضا بمحمَّدٍ ﷺ، رضًا به وبرسالته، وأنه مرسل من ربِّ العالمين ومبلغ عن الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ** ﴾ [النور: ٥٤]، والرِّضا به رسولًا يعني: طاعته فيما أرسل به، واتباعه فيما دعا إليه، ولزوم نهجه، وترسم خطاه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قَوْلُهُ: (**وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا**). فهو رضا بدين الله الذي رضيه لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ** ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، فيرضى العبد لنفسه دين الله الذي رضيه لعباده، ويقتضي هذا الرِّضا بالدِّين: أن يُقبل المرء على دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعلُّمًا له، ومعرفة بما فيه من حكم وأحكام وعقائد وشرائع، وأن يدين الله بذلك كله، مؤمنًا متعبدًا خاضعًا مُتذللًا لله ربّ العالمين.

قَوْلُهُ: (غفرَ الله ذَنْبهُ). أي: ذنوبه، والمراد: الصغائر؛ إذ الكبائر لابد لها من توبة. ◈

ما يُقال بعد التَّسليم من الصَّلاة

(روى ثَوْبَانُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إذا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، قَالَ الْوَلِيدُ: قُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الْاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ. انفرد به مسلم[1]).

• الشرح •

ورد في السنة بعد الفراغ من الصلاة وختمها بالسَّلام جُملةٌ من الأذكار العظيمة ينبغي للمسلم أن يحرص عليها؛ فإنَّ فيها الخير والبركة، والسَّلامة والعِصمة، والكمال والتَّمام، وكلُّ ذلك لا يوجد في

(١) أخرجه مسلم (٥٩١).

غير المأثور عن نبينا ﷺ.

والإتيان بهذا الاستغفار ثلاث مرات بعد السَّلام في غاية المناسبة وتمام الموافقة؛ لأنك مهما اجتهدت في صلاتك إتمامًا وخشوعًا، لابد أن يقع منك قصور وخَلل، فتستغفر ربك ثلاثًا، ويُرجى أن يكون استغفارك هذا بعد صلاتك جابرًا للنقص الذي يكون منك فيها.

قَوْلُهُ: (**اللَّهُمَّ أَنتَ السَّلَامُ**). السَّلام: اسم من أسماء الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣]، ومعنى السَّلام؛ أي: المنزه، فهو من أسماء التَّنزيه والتَّقديس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل: السُّبوح، والقُدُّوس، فهذه أسماء تعني: تنزيه الله عن النَّقائص والعيوب، وعن كلِّ ما لا يليق به، وتنزيهه عن مُماثلة المخلوقات، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

قَوْلُهُ: (**وَمِنْكَ السَّلَامُ**). أي: كلُّ سلامةٍ من المهالك، فهي منك وحدك، وهذا أسلوب حاصر؛ أي: منك وحدكَ، فلا سلامة للعباد من الشُّرور والمهالك إلَّا بفضلٍ مِنكَ ومَنٍّ.

قَوْلُهُ: (**تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**). أي: تعاليت يا ذا الجلال والإكرام، وهما وصفان عظيمان لله، دالَّان على عظيم صفاته جَلَّ وَعَلَا، وكماله وكثرة نعمه وعطاياه، **فالجلال**: يدلُّ على عظم الصِّفات، **والإكرام**: يدلُّ على عظمة المنن وكثرة العطايا والجود والفضل، فالعبد يقول ذلك ذاكرًا عظمة ربِّه وعظيم فضله ومنِّه جَلَّ وَعَلَا.

(وروى المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ إذا قَضَى الصلاة: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»[١]. متفق عليه.

وقوله: «لا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدّ» -بفتح الجيم-، أي: لا ينفع ذا الغِنى منكَ غِناه، إنَّما ينفعُه العملُ بطاعتكَ، وقيل: الجَدُّ والبَخْت: الحظُّ، ورواه بعضُهم بكسر الجيم، وحَمَلَه على الحِرْصِ في الأمور، وأنكر ذلك أبو عُبَيد)[٢].

• الشرح •

قَوْلُهُ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). هذه كلمة التَّوحيد التي لأجلها قامت الأرض والسَّماوات، وهي أفضل الكلمات، وأجلها على الإطلاق، وهي أفضل الذِّكر وأعلاه شأنًا، وقد صحَّ في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: **«أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**[٣]، وهي أعلى شُعب الإيمان وأرفعها، قال ﷺ: **«الإيمان بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان»**[٤].

وقد جُمع في هذا اللَّفظ: **«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ**

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).
(٢) غريب الحديث (١/ ٢٥٨).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وحسنه الألباني.
(٤) أخرجه مسلم (٣٥).

المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» بين هذه الكلمة -كلمة التَّوحيد العظيمة-، وبين تأكيد معناها ومدلولها، وذكر شيء من دلائلها وبراهينها.

فـ «**لَا إِلَهَ إِلَّا الله**» كلمة التَّوحيد، وهي قائمة على ركنين: النَّفي، والإثبات، نفي العبودية عن كلِّ ما سوى الله، وإثبات العبودية بكلِّ معانيها لله وحده.

وأما «**وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**» فهذا تأكيد للتوحيد بركنيه، فإنَّ قوله: «**وَحْدَهُ**» تأكيد للإثبات، وقوله: «**لا شَرِيكَ لَهُ**» تأكيد للنفي.

وأما «**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»، فهذه براهين للتوحيد، ودلائل على وجوب إخلاص الدِّين لله، وأنَّ المعبود بحقٍّ، الذي لا معبود بحقٍّ سواه، هو الذي له المُلك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**). أي: الأمر كلُّه بيدك، تعطي وتمنع، تخفض وترفع، تقبض وتبسط، تُعزُّ وتُذلُّ، تُحيي وتُميت، تُضحك وتُبكي، فمَن أعطيتَه فلا قدرة لأحد على منع عطائكَ عنه، ومَن منعته لا قدرة لأحدٍ على إعطائه، ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، فالأمر بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يُحيي ويُميت، يعزُّ ويذلُّ، يقبض ويبسط، فالأمر بيده والخلق كلهم طوع تسخيره وتدبيره، وعندما يقول العبد هذه الكلمة عالمًا بمعناها ومدلولها، فإنَّها تُقوِّي في قلبه جانب التَّوكل على الله، وحُسن الثِّقة به والالتجاء إليه.

قَوْلُهُ: (**لاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ**)، الجد: الحظ والنَّصيب، أي:

لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنَّما الذي ينفع العبد طاعته لله، واستجابته لأمر الله، أمَّا المال والجاه والمكانة، فهذه لا تنفعه عند الله ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، فمال الشَّخص ورئاسته، وجاهه وغيرها من الأمور لا تقرِّبه عند الله، إنَّما الذي يقرِّبه عند الله؛ التَّوحيد، والإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الحديث: «**مَن بطَّأَ به عملُه؛ لم يسرع به نسبُه**».

قَوْلُهُ: (**ولا ينفع ذا الجد منك الجد -بفتح الجيم-، أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما ينفعه العمل بطاعتك، وقيل: الجد والبخت: الحظ**). ما الذي يمنع أن يجتمع هذا كله، **فيكون المعنى**: ولا ينفع ذا الجد، أي: ذا الغنى والحظ والجاه والمال، فهذه كلها لا تنفع الشَّخص عند الله، إنَّما الذي ينفعه الطاعة والعبادة.

قَوْلُهُ: (**ورواه بعضهم بكسر الجيم، وحمله على الحرص في الأمور، وأنكر ذلك أبو عبيد**). لكن المحفوظ في رواية هذا الحديث: بفتح الجيم ذا الجَد، وليس بكسرها. ◈

وروى عطاء بن يزيد الليثي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». انفرد به مسلم[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٩٧).

واتفقا على معناه من رواية أبي صالح عن أبي هريرة[١].

• الشرح •

أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، الذي فيه هذه الأذكار العظيمة والكلمات المباركة، التي مَن أتى بها؛ غُفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر كثرةً، فيُستحب للمسلم أن يحافظ عليها، ويعتني بها دبر كلِّ صلاةٍ، وهي من موجبات غفران الذُّنوب، وحطِّ الخطايا، وإن كانت مثل زبد البحر.

وهذا الذِّكر لا يأخذ من الوقت إلَّا دقائق معدودات ويترتب عليها هذه الأجور العظيمة، ومع ذلك فإنَّ كثيرًا من النَّاس بمجرد أن يُسلم، يقوم من مكانه، ويخرج إلى مصالحه وأعماله.

قَوْلُهُ: (**سبحان الله**). تنزيه وتقديس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن النَّقائص والعيوب، وعن ما لا يليق بجلاله، وعن مماثلة المخلوقات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، أي: تنزه وتقدس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**الحمد لله**). هذه كلمة ثناء على الله ومدح له جَلَّ وَعَلَا مع الحب له.

وهي تتناول الحمد على الأسماء والصِّفات، وعلى مننه وآلائه ونعمه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

قَوْلُهُ: (**الله أكبر**). كلمة تعظيم لله، وإيمان بأنه الكبير المتعال جَلَّ وَعَلَا، وأنه لا أكبر منه. فعندما يردد المسلم: «الله أكبر، الله أكبر» مُعظمًا ربَّه، يسقط من قلبه كلُّ الأشياء المعظمة، ففيها مداواة القلوب، وتقوية صلتها بربِّها؛ إجلالًا وتعظيمًا.

والسُّنَّة المأثورة عن النَّبي ﷺ في هذه الأذكار وغيرها ممَّا يحتاج إلى عدٍّ أن تعد بأصابع اليد، كما هو هديه ﷺ، وكان الخَرز في زمانه ﷺ موجودًا، ومن المتيسر نظمه واستعماله للعدِّ، ومع ذلك لم يفعله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا رغب فيه ولا دعا إليه، وخير الهَدي هديه ﷺ، فقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُ التَّسْبِيحَ بِيَمِينِهِ»[(١)]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وَاعْقِدْنَ** -أي: التَّسبيح- **بِالْأَنَامِلِ فَإِنَّهُنَّ مَسْؤُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ**»[(٢)]، فالسُّنَّة التَّسبيح باليد، اقتداءًا به ﷺ.

(وروى عبد الله بْنُ الزُّبَيْرِ، أنَّه كان يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، [لَا إِله إِلَّا الله][(٣)] وَلاَ نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَالْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»، قَالَ: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ». انفرد به مسلم[(٤)]).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٠٢)، والترمذي (٣٤١٠)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه أبو داود (١٥٠١)، والترمذي (٣٥٨٣)، وحسنه الألباني.
(٣) زيادة من صحيح مسلم ساقطة من الأصل.
(٤) أخرجه مسلم (٥٩٤).

• الشرح •

هذه ثلاث تهليلات:

الأولى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

الثانية: لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن.

الثالثة: لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

فأُتبعت كلّ تهليلةٍ بتأكيد للتوحيد؛ تثبيتًا لمعناه، وتقريرًا لبراهينه.

فالتَّهليلة الأولى أُتبعت بقوله: «**وحده لا شريك له**»، وهذا تأكيد للتوحيد، وقوله: «**له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير**»، وهذه براهين على وجوب إفراده بالعبادة.

والتَّهليلة الثَّانية أُتبعت بقوله: «**لا إله إلَّا الله ولا نعبد إلَّا إيَّاه**»، فـ «**لا نعبد إلَّا إيَّاه**»: هذا هو التَّوحيد، وقوله: «**له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن**»، هذه براهين ودلائل على وجوب إفراده بالعبادة وإخلاص الدِّين له.

التَّهليلة الثَّالثة أُتبعت بقوله: «**مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»، وهذه حقيقة التَّوحيد، أن تخلص الدين كله لله، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٣]، والخالص: هو الصَّافي النَّقي، وإخلاص الدِّين لله: أن يكون الدِّين خالصًا نقيًّا لله، لا يُبتغى به إلَّا الله.

وانظر -رعاك الله- إلى هذه التَّهليلات الثَّلاث كيف تُجدد للمسلم

توحيده وإيمانه وإخلاصه لله؛ ولهذا ينبغي للمسلم أن يقولها عن فَهمٍ للمعنى وتحقيقٍ للمقصد، فلا يأتي بها كلمات مجردة لا يدري ما هي، بل عليه أن يقولها مستشعرًا لما دلَّت عليه من التَّوحيد والإخلاص والإفراد لله بالعبادة، ولما وُجد مَن يقول هذه الكلمة وهو لا يدري ما معناها، ربما نقضها بأقواله وأفعاله، فيقول: «لا إله إلا الله»، ثمَّ بعدها بلحظاتٍ، يمد يديه ويستغيث بغير الله من الأموات المقبورين ممَن لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؛ فضلًا عن أن يملكوا لغيرهم شيئًا من ذلك.

و«لا إله إلا الله»: لا تنفع قائلها بمجرد النُّطق بها، بل لا بد أن يشهد بها عن علم بمعناها، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أي: يعلمون معنى ما شهدوا به، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وفي صحيح مسلم قال النَّبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، فاشترط العلم بمعناها، فلابد أن يعلم المسلم معنى هذه الكلمة وما تدل عليه من التَّوحيد، والإخلاص لله، ولابد أن يحقق التوحيد الذي هو مدلولها.

فالحاصل أنَّ هذه الكلمات المباركات التي يُشرع للمسلم أن يقولها دبر كلِّ صلاةٍ، من شأنها أنَّها تجدد التَّوحيد في قلب المسلم وتقويه إن قالها عن استحضار لما دلت عليه. ◈

ما يُسبح به في الأيام وفضل التَّسبيح

(روى أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

(١) أخرجه مسلم (٢٦).

قَدِيرٌ. فِي كلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يومَ القِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ به إِلَّا أحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلك، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ،]فِي يَوْمٍ مِائَةَ[[1] مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ». متفق عليه[2].

قَوْلُهُ: عدل عشر رقاب. العَدْلَ -بالفتح-: المثْلِ وما عادَلَ الشَّيءَ من غير جنسه، وبالكَسرِ: ما عادَله من جنسِهِ، وكان نظيرَه، وقال البَصْريون: العَدْلَ والعِدلَ لُغتان، وهما المِثْل).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (ما يُسبح به في الأيام وفضل التَّسبيح). أي: وردًا يوميًّا يواظب عليه المسلم في كلِّ يومٍ من أيامه، بحيث يحرص على أن لا يفوت عليه هذا الورد في أي يوم من أيامه.

قَوْلُهُ: (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). هذه كلمة التَّوحيد التي لأجلها قامت الأرض والسَّماوات.

وقد جُمع في هذه الجملة بين هذه الكلمة -كلمة التَّوحيد العظيمة-، وبين تأكيد معناها ومدلولها، وذكر شيء من دلائلها وبراهينها.

---

(١) زيادة من صحيح مسلم ساقطة من الأصل.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

قَوْلُهُ: (**فِي كلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَـرَّةٍ**). يفيد أهمية المواظبة على هذا الذِّكر بهذا العدد مائة مرة، بحيث يكون وردًا للمسلم في كلِّ يومٍ من أيامه، والمائة تعد -اتباعًا للسنة- بأصابع اليد؛ لأنَّه أبلغ وأكملُ في التَّعبد والخشوع والبُعد عن المراءاة من استخدام النَّاس لآلاتٍ أو خرزٍ أو نحو ذلك.

ولم يُذكر في هذا الحديث وقتٌ من اليوم يؤتى فيه بهذه التَّهليلات، لكن الأولى المبادرة والإتيان به من أول اليوم ومفتتحه؛ لأنَّ ذلك فيه:

أولًا: مسارعة في الخيرات.

ثانيًا: ليغنم خيرات هذا الذِّكر وبركاته من أول يومه.

ثالثًا: لأنَّ الإنسان لا يدري ما يعرض له في يومه من الحوائل والعوائق والشَّواغل.

ثمَّ ذكر ﷺ الفوائد والثِّمار لمَن يوفق للإتيان بهذا الذِّكر والعناية به، فذكر عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خمسة ثمار عظيمة، وهي:

الأولى: «**كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ**»، أي: كأنما أعتق في يومه هذا عشر رقاب في سبيل الله، وعتق الرقاب لا يخفى عظيم فضله وشريف قدره وجزيل ثوابه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الثَّانية: «**وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ**».

الثَّالثة: «**وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ**».

الرَّابعة: «**وَكَانَ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ**»، وهذا ممَّا يؤكد أهمية المبادرة للإتيان بهذا الذِّكر من أول اليوم؛ حتى يكون حصنًا له من الشَّيطان، وحرزًا واقيًا له من الشَّيطان من أول اليوم، ولا يؤخر هذه الفضيلة حتى ينتصف اليوم، أو قُرب نهاية اليوم، بل يحرص

على اغتنامها من أول يومه.

الخامسة: «**وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يومَ القِيَامَةِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ به، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلك**»، وليس المراد بقوله: «**عمل أكثر من ذلك**»، أي: عدَّ التَّهليلات مائة وعشرة على سبيل المثال، فالتَّهليلات تُعَدُّ كما وردت مائة، لكن يُستكثر من التَّهليل المطلق، أو التَّسبيح المطلق، أو النَّوافل بعمومها.

قَوْلُهُ: (**وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**). وهذا القول فيه كالقول في الذي قبله، أنَّ على المسلم أن يحرص على أن يأتي به من أول اليوم، وقد تقدم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ؛ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ عَلَيْهِ**»[١]، فهذا نصٌّ على أنه من أذكار الصباح والمساء، فيؤتى بهذه التَّسبيحات مائة مرة في الصَّباح، ومائة مرة في المساء.

قَوْلُهُ: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**). هذا جمع بين التَّسبيح والتَّحميد، والتَّسبيح تنزيه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والتَّحميد ثناء على الله، فهو جمع بين التَّنزيه له عمَّا لا يليق به، والثَّناء عليه بما هو أهله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهاتان الكلمتان دلَّ القرآن الكريم على أنهما خاتمة كلام أهل الجنة في دخولهم الجنة، فقال الله: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿**دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [يونس: ١٠]، فجمعوا بين هاتين الكلمتين: التسبيح، والتحميد، جعلنا الله من المكثرين من التَّسبيح

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٢).

بحمد الله، ومن القائلين لها في جنات النَّعيم. ◈

(وروى موسى الجُهَني عن مُصْعَب بن سعد بن أبي وَقَّاص، عن أبيه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ». انفرد به مسلم[1].

قال الحُميدي: هكذا هو في «كتاب مسلم» في جميع الروايات، عن موسى: أو يحط، قال البُرْقاني: ورواه شعبةُ، وأبو عَوَانة، ويحيى بنُ سعيدٍ القَطّان فقالوا: وَيَحُطُّ بغير أَلِفٍ).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟). هذا أسلوب تشويق، والاستفهام في قوله: «**أيعجز**» بمعنى النفي، أي: لا يعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة، فشوقهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتاقت نفوسهم لذلك، ولهذا «**سَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**»، وهذا يدل على حرص الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الخير، وعظيم رغبتهم في تحصيله، فقال ﷺ: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ**»، لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، كما دلَّت على ذلك عموم الأدلة في كتاب الله، وسنة نبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: «**أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**» قال النووي: «هكذا هو في عامة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٨).

نسخ صحيح مسلم «أَوْ يُحَطُّ» بـ «أو» وفي بعضها «ويُحَطُّ» بالواو، وقال الحميدي في (الجمع بين الصحيحين): كذا هو في كتاب مسلم: «أَوْ يُحَطُّ» بـ «أو». وقال البرقاني: ورواه شعبة وأبو عوانة ويحيى القطان عن يحيى الذي رواه مسلم من جهته فقالوا: «وْ يُحَطُّ» بالواو. والله أعلم»[(١)].

(وروى أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ». متفق عليه)[(٢)].

قَوْلُهُ: (كَلِمَتَانِ). خبر مقدم، والمبتدأ هو قوله: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، وأصل الجملة: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، كلمتان خفيفتان على اللِّسان... لكنه قدم الخبر وأطال في وصفه، ثمَّ جاء بالمبتدأ بعد أن اشتاقت القلوب إلى معرفته، وهذا من أساليب التَّشويق العظيمة، والتَّرغيب في الخير والحثِّ عليه، حيث قال: «**كَلِمَتَانِ**» ثمَّ أخذ يصف هاتين الكلمتين فقال: «**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ**»، إلى أن اشتاقت القلوب شوقًا عظيمًا إلى معرفة هاتين الكلمتين بعد هذه الأوصاف العظيمة، التي جمعت بين الخفة على اللِّسان، وهذا دليل على قلَّة العمل، فهو ليس عملًا ثقيلًا متعبًا مجهدًا، ومقابل هذه الخفة على اللِّسان؛ ثقل في الميزان يوم القيامة، والذي يدل على عظم الثواب، فأفاد قوله: «**خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ**» قلَّة العمل وكثرة الثَّواب، وهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يعمل العبد قليلًا وينال عليه العظيم من الأجر والثَّواب.

والحديث فيه إثبات الميزان، وهو ميزان حقيقي ينصب يوم

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).

القيامة، له كِفَّتان: كِفَّة توضع فيها الحسنات، وكِفَّة توضع فيها السَّيئات، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨- ٩].

قَوْلُهُ: (**حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ**). فيه بيان عظم مكانة هاتين الكلمتين عند الله، وأنهما حبيبتان إليه، وهذا فيه إثبات صفة المحبة لله وخُص اسمه الرحمن بإضافة هذه المحبة إليه: إشعارًا بعظيم نصيب هؤلاء الذَّاكرين من رحمة الله.

قَوْلُهُ: (**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**). هاتان الكلمتان قائمتان على التَّنزيه لله جَلَّوَعَلَا، **فالأولى**: تنزيه أُثبت بعده الحمد لله جَلَّوَعَلَا، **والثَّانية**: أُثبت بعده العظمة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وحاصل هذا التَّسبيح أنَّ الذَّاكر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، نزه ربَّه تنزيهًا يستصحب معه الثَّناء على الله والتَّعظيم له جَلَّوَعَلَا.

(وروى أبو صالح عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، **قَالَ**: **قال رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**». **انفرد به مسلم**[(١)]**)**.

• الشرح •

هذا الحديث جمع الكلمات الأربع التي هي أفضل الكلمات وأحبها إلى الله جَلَّوَعَلَا، كما ثبت في الحديث الصَّحيح عن النَّبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٥).

أنه قال: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**»[(١)].

وقد ورد في فضل هؤلاء الكلمات أحاديث كثيرة عن الرَّسول الكريم ﷺ جمعتُ طائفة منها في رسالة مطبوعة بعنوان: «فضائل الكلمات الأربع».

و**التَّسبيح**: تنزيه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، و**التَّهليل**: توحيدٌ وإخلاص، و**الحمد**: ثناء على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بما هو أهله جَلَّ وَعَلَا، و**التكبير**: تعظيم لله واعتقاد أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الكبير الذي لا أكبر منه جَلَّ وَعَلَا. ◈

(وروى أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تعالى؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تعالى، فَقَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تعالى: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ». انفرد به مسلم**[(٢)]**).**

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تعالى؟**). هذا أسلوب تشويق، فلمَّا اشتاق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمعرفته، قال له النَّبي ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ تعالى: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»، وتقدم عظيم فضل هذه الكلمة وعظيم ثوابها في الحديث الذي قبله.

(وروى أبو مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**مَثَلُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣١).

الَّذِي يَذْكُرُ الله وَالَّذِي لَا يَذْكُرُه، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ». متفق عليه[١]).

• الشرح •

في هذا الحديث فضل الذِّكر والعناية به والمواظبة عليه، وأنه حياة للقلوب، فكلما أكثر العبد من ذكر الله كثرت هذه الحياة في قلبه؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الذِّكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السَّمك إذا فارق الماء؟»[٢]، فحياة القلب إنَّما تكون بما خلق لأجله، وهو إقامة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توحيدًا وتعظيمًا وتمجيدًا لله جَلَّ وَعَلَا، فهذه هي الحياة الحقيقية لقلب العبد.

وهذا الحديث ورد بلفظين الأول منهما: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ الله وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ الله، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ**»[٣]، وورد أيضًا بلفظ آخر: «**مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ اللهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»[٤]، ويفيد مجموع اللَّفظين الواردين لهذا الحديث أهمية العناية بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في البيوت، وأنَّ بيوت مَن لا يذكرون الله شبيهة بالمقابر، فالذي لا يذكر الله في بيته كأن بيته مقبرة له، والقلب الذي لا يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كأن صدره مقبرة لقلبه.

قال ابن القيم: «فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحي، وبيت

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).
(٢) انظر: «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص: ٤٢).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).
(٤) أخرجه مسلم (٧٧٩).

الغافل بمنزلة بيت الميت، وهو القبر.

وفي اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحي والغافل بمنزلة الميت، فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحي في بيوت الأحياء، والغافل كالميت في بيوت الأموات. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم وقلوبهم فيها كالأموات»[١].

فالحاصل أنَّ العبد ينبغي عليه أن يكون حريصًا على ذكر الله، بل حريصًا على ذكر الله بالكثرة، كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ما يُقال عند القيام من المجلس

(روى أبو هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولَ اللهِ ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ». أخرجه الترمذي والنسائي، قال الترمذي: حسن صحيح[٢].

قلت: وقال البُخاري: له عِلَّة، وقد جمعتُ طرقه في «جزء مفرد». واللَّغَط: اختلافُ الأصوات في الكلام حتى لا يُفهم[٣]).

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وصححه الألباني.

(٣) انظر: «معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص: ١١٣).

• الشرح •

المسلم مطلوب منه في مجالسه أن يتحرز من اللَّغط، وأن يتنبه إلى أنَّ كلماته في مجالسه محسوبة عليه ومعدودة في عمله، وأنَّ الواجب عليه أن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن العبد مهما اجتهد في ذلك، فلا بد أن يبدر منه التَّقصير في مجلسه، ولو لم يكن في ذلك إلَّا أنه فوَّت على نفسه في مجلسه هذا شيئًا من الخير لمَّا اشتغل بالمباح عن المستحب لكفى به تقصيرًا، فكيف إذا كان كثير من المجالس لا تخلو من اللَّغط، بل حتى أحيانًا من الآثام، فهذه الكلمات كفارة للعبد لما كان في مجلسه ذلك، وينبغي أن يُعلم هنا أنَّ ما يقع في مجالس النَّاس من خطأ وذنب بسبب آفات اللِّسان على قسمين:

الأول: الكبائر مثل: الغِيبة والنَّميمة والسُّخرية واللَّعن والشَّتم والوقيعة في الأعراض، فلا يقول القائل: أنَّ هذا الحديث يدل على أنَّ الإنسان يجلس في مجلسه ويغتاب من أراد وينم ويهزأ ويسخر ويقول الحرام والآثام، ثم يقول: أختم مجلسي بهذا التَّسبيح ويغفر ما كان، فالكبائر لا بد فيها من توبةٍ، وإذا كانت آثارها متعدية، فلا بد من محو ذلك الأثر، فإذا كان مثلًا نمَّ فأوقع عداوة بين اثنين، أو اغتاب فشحن الصُّدور على أحد المسلمين، فلا يكفي في ذلك أن يقول: آتي بهذا الذِّكر في خاتمة المجلس ويكون كفارة لما كان، فالكبائر لابد فيها من توبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من تلك الذُّنوب وتلك الكبائر.

الثاني: صِغار الذُّنوب واللَّمم، ممَّا لا يتعدَّى بأثره على الغير، فهذا يُكفره هذا الدُّعاء عند القيام من المجلس.

والحاصل أنَّ العبد يجب عليه أن يصون مجالسه عن المعاصي

والآثام، وأن يحرص على ختم مجالسه بهذا الذِّكر المبارك العظيم المأثور عن النَّبي ﷺ.

قَوْلُهُ: (**فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**). يدلُّ على الحرص على أن يقولها في المجلس نفسه قبل أن يقوم منه، بحيث تكون خاتمة المجلس.

قَوْلُهُ: (**سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**). جمع ثلاث كلمات من الكلمات الأربع التي هي أحب الكلام إلى الله: «التَّسبيح والتَّحميد والتَّهليل»، ثمَّ أتبع ذلك بالاستغفار: «**أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**»؛ أي: أطلب منك يا الله أن تغفر لي وتتوب عليَّ.

قَوْلُهُ: (**إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ**). أي: من الصَّغائر، أمَّا الكبائر، فقد دلَّت عموم النُّصوص أنه لابد فيها من توبة، قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمعَةُ إِلَى الْجُمعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**»[1]، ومعلوم أنَّ الصَّلوات الخمس أعظم من قولِ: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلَّا أنتَ، أستغفرك وأتوب إليك، بل جميع هذه الكلمات موجودة في الصَّلاة: التَّسبيح، والتَّكبير، والتَّهليل، والاستغفار، ومع هذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**».

وإذا كان المجلس فيه كلام في أعراض المسلمين: غِيبة ونميمة وسخرية ونحو ذلك، فهذه حقوق للعباد؛ لا يكفي فيها هذا الذكر أن يقوله المرء ويظن بذلك أن هذه الحقوق سقطت؛ فهي لا تسقط إلَّا بالعفو والمسامحة منهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣).

قَوْلُهُ: (**اللَّغط: اختلاف الأصوات في الكلام حتى لا يفهم**). من كثرة اللَّجج والأصوات في المجلس، وهذا يدلُّ على كثرة الكلام فيه، فلا يأمن العبد في مثل هذه المجالس أن يكون زلَّ لسانه بكلمةٍ، فيكون هذا الذِّكر كفارة له، لكن ينبغي التَّنبه إلى أنه إذا كان الذي صدر منه في مجلسه من الكبائر، فلابد أن يتوب منها العبد إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ ندمًا على قولها، وعزمًا على عدم العودة إليها، والإقلاع عنها تمامًا في مجالسه القادمة، وهذه هي التَّوبة النَّصوح، وقد قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، فمن شرط التَّوبة المقبولة: أن تكون نصوحًا، والتَّوبة النَّصوح: هي التي استوفت شروط التَّوبة: النَّدم، والإقلاع، والعزم على عدم العودة إلى الذَّنب مرة أخرى.

ولا يختص هذا الذكر بختم المجلس الذي كثر فيه اللغط، بل يتناول كلَّ مجلس، حتى مجلس الذكر؛ لما صحَّ من حديث جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارة له**»[1]. ◈

ما يُقال عند المساء

(**روى عَبْد اللهِ بن مسعود** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قَالَ: كَانَ النبيُّ** ﷺ: **إذا أَمْسَى قَالَ**: «**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا**

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥٨٦)، والحاكم (١٩٧٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨١).

شَرِيكَ لَهُ» قَالَ: أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: «لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ» وَإذا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ». أخرجه مسلم[(١)].

وقوله: «وسوء الكِبر»: روي بسكون الباءِ بمعنى التَّعظُّم على النَّاس، وبفتحها بمعنى كِبَرِ السِّنِّ والخَرَف، وذَكَرَ الخَطَّابيُّ الوجهينِ ورجَّح الفتح).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**ما يُقَالُ عندَ المساء**). أي: من الأذكار والدَّعوات المأثورة عن النَّبي الكريم ﷺ.

قَوْلُهُ: (**إِذَا أَمْسَى**). أي: دخل المساء وأدركه، حينئذٍ يقول: «**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ**»، وهذا يفيد أن هذا الذكر يُقال في فترة المساء، سواء في أول المساء أو وسطه أو آخره، فموضعها: إذا أمسى المرء.

قَوْلُهُ: (**أَمْسَيْنَا**). هذا ذكر لنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد، وإقرار بأنَّ المُلك كلّه بيد الله، وأن العبد قد أدرك هذا المساء وكان من أهله بمنّة الله عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن النَّاس مَن أصبح ولم يمسِ، ومنهم مَن أمسى ولم يصبح، كما قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإذا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٣).

وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[١]، فإذا بلغ العبد المساء، وكان من أهله فهذه نعمة يذكرها العبد شاكرًا للمنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا يأتي بعدها الحمد «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ**»؛ لأنَّ قول: «**أمسينا**» ذكرٌ للنعمة، واستشعارٌ لمنّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثمَّ أُتبع ذلك بحمد المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ**). هذا إقرار من العبد بأنَّ المُلك كلَّه بيد الله وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتسخيره، فقول العبد: «**وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ**» إقرار من العبد واعتراف متجدد كلَّ مساءٍ، تجديدًا لإيمانه بتدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للكون وتسخيره للكائنات، وأنَّها كلّها طوع تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ**). هذا حمد لله على النِّعمة واستشعار للمنة، والحمد ثناء على المحمود بما هو أهله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع الحبِّ له والذُّل، والله جَلَّ وَعَلَا يحمد على أسمائه وصفاته، ويحمد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على مننه وآلائه، والحمد هنا تناول النَّوعين.

قَوْلُهُ: (**لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ**). هذه كلمة التَّوحيد، وهي قائمة على ركنين: النَّفي والإثبات؛ نفي العبودية عن كلِّ ما سوى الله، وإثبات العبودية بكلِّ معانيها لله وحده إخلاصًا له وإفرادًا له بالعبادة، فـ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، وأنه جَلَّ وَعَلَا وحده الذي يجب أن يُفرد بالعبادة ويُخصُّ بالذُّل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

قَوْلُهُ: (**وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**). هذا تأكيد لكلمة التَّوحيد بركنيها النَّفي والإثبات، فإنَّ قوله: «**وَحدَهُ**» تأكيد للإثبات، وقوله: «**لَا شَرِيكَ لَهُ**» تأكيد للنفي، وهذا التَّأكيد اهتمام بمقام التَّوحيد، وتعظيم لشأنه وعناية به.

قَوْلُهُ: (**لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ**). وهذا

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

إقرار بأنَّ المُلك كله لله، فإن قوله: «**لَهُ المُلكُ**» هذا أسلوب حصر دالٌّ على الاختصاص، أي: أنَّ المُلك كلَّه لله ربِّ العالمين لا شريك له، وحمده شامل لما شمله ملكه؛ فلا يخرج شيء عن حمده كما لا يخرج شيء عن ملكه.

قَوْلُهُ: (**رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ**). هذا هو المطلوب، وكلّ ما قبله وسائل، من إقرار العبد بنعمة الله عليه، وأنَّ الرَّبّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو وحده الملك المدبر لهذه الكائنات، ومن ثَمَّ حمده جَلَّوَعَلَا على ذلك، ثمَّ إعلان التَّوحيد، وتجديده بذكر كلمته العظيمة، ثمَّ ذَكَرَ مطلوبَه: «**رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ**»، فهذا وما بعده هو المطلوب وما قبله وسيلة.

قَوْلُهُ: (**رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا**). أي: خير ما أنزلته على عبادك من بركاتٍ ونِعَمٍ وخيراتٍ، وهذا فيه التجاء من العبد إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يكتب له الخير في ليلته، وأن يقسم له فيها الخير والبركة، ثمَّ أتبع ذلك بما بعدها من أيامٍ وليالٍ.

قَوْلُهُ: (**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا**). أي: أعوذ بك من شرِّ كلِّ شرٍّ كائن وحادث وحاصل في هذه اللَّيلة، أن تعيذني منه وتحميني؛ لأنَّ الاستعاذة اعتصام بالله والتجاء إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ثم أتبع ذلك بالتعوذ من شرِّ ما بعدها من اللَّيالي والأيام.

قَوْلُهُ: (**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ**). الكسل: هو عدم نهوض العبد لمصالحه مع قدرته على ذلك، أمَّا عدم القُدرة على النهوض، فهذا يُسمى عجزًا، فالكسل أن يكون عند المرء قدرة وفي صحة، لكنه لا ينهض لمصالحه لما عنده من فتورٍ وخمولٍ، فهذا يتعوذ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منه، والتَّعوذ بالله من الكسل ينبغي أن يكون مستصحبًا بتحرك المرء

للقيام بمصالحه، فيتعوذ بالله من الكسل ويجاهد نفسه على العمل والنَّشاط وترك الخمول، عملا بقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وعملًا بالحديث: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»(١)، فينبغي أن يتبع حرصه على ما ينفعه ببذل الأسباب.

قَوْلُهُ: (**وَسُوءِ الْكِبَرِ**). ضبطت سوء الكِبر بالإسكان والفتح، والأظهر هو الفتح، فـ«سوء الكبر». أي: ما يكون في كبر المرء من ضعف ووهن وخرف، كما في الدُّعاء الآخر: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَالْكَسَلِ، وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ**»(٢)، فأرذل العمر: هو سوء الكبر، وهذا يعني: أن العبد يسأل ربه أن يبقى متمتعا بعقله وعافيته وحواسه إلى أن يتوفاه الله، كما في الدعاء: «... **وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا**»(٣).

قَوْلُهُ: (**رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ**). هذا تعوذ بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من عذاب النَّار، والتَّعوذ بالله من عذاب النَّار يتضمن طلب المعونة من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يقي عبده موجبات دخول النار، فإذا قلت: أعوذ بك من عذاب النار، فإن هذا يتضمن أن يجنبك المعاصي التي توجب دخول النار، ويجنبك ترك الفرائض الذي يوجب دخول النار.

قَوْلُهُ: (**وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ**). عذاب القبر حقّ، كما صحَّ بذلك الحديث عن النَّبي الكريم ﷺ.

قَوْلُهُ: (**وَإِذا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ...**).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني.

أي: أن هذا الدُّعاء الذي يُقال في المساء، فإنه يُقال كذلك في الصَّباح، إلَّا أنَّ الصِّياغة في الصباح تعدل بما يناسب الصَّباح فيقول: «**أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله**»، ثمَّ يقول: «**أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر ما في هذا اليوم وشر ما بعده**». ◈

(روى أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ للنبيّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ! قَالَ: «أَمَا إنك لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّكَ». انفرد به مسلم[١].

وقوله: بكلمات الله: قال الهَرَوي: هي القرآن، والتَّامات: قيل: هي الكاملة، وقيل: هي النَّافعة الكافية الشَّافية ممَّا يُتَعَوَّذُ منه).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي الْبَارِحَةَ!). أي: من شدة ووجع وألم، فقال النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمَا لَوْ قُلْتَ، حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّكَ**»، أي: لم يضرك سمُّ هذه العقرب، والمراد: أنه قد يُلْدَغ المرء لكن لا يحصل له ضرر، ولو نفذ السُّمُّ إلى البدن؛ فلم ينف وجود اللَّدغ، لكنه نفى حصول الضرر وأن سمها وإن نفذ إلى البدن لا تأثير له عليه إطلاقًا، ولا يحصل للبدن أيُّ ضرر.

وقد أورد الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في جامعه، وذكر عقبه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

عن سهيل بن أبي صالح وهو من رواة هذا الحديث قال: «كان أهلنا تعلموها فكانوا يقولونها كلَّ ليلة، فلُدغت جارية منهم فلم تجد لها وجعا»، فوجدت اللَّدغة لكن لم تجد لها وجعًا؛ لأنَّ النَّبي ﷺ قال: «**لم يضرك**»، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا خبرٌ صحيح وقول صادق، علمنا صدقه دليلًا وتجربة؛ فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت به، فلم يضرني شيء إلى أن تركته؛ فلدغتني عقرب بالمهدية ليلًا، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات؛ فقلت لنفسي ذامًّا لها وموبخًا، ما قاله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للرجل الملدوغ: أما إنك لو قُلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات، لم يضرك شيء»[١].

وجاء في رواية أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ حُمَة تِلْكَ اللَّيْلَةَ**»[٢].

والحاصل أنَّ هذا التَّعوذ العظيم المبارك ينبغي أن يحافظ عليه المرء محافظة مستمرة كلَّ مساء ثلاث مرات، وأن يعوِّد أهله وولده على ذلك، مثلما قال سهيل: رَحِمَهُ ٱللَّهُ «**كان أهلنا...**»، فيعود أهله على ذلك وولده، بحيث يؤتى به كلّ مساء، ولو قُدر أنَّ أحدًا منهم لُدِغَ أو أصابه شيء من ذوات السُّموم، فإنَّه لا يضره بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ**). نقل المصنف عن الهروي قوله: «**هي القرآن**»، وهذا يحتمله اللَّفظ، ويحتمل أيضًا معنى آخر، وهو الكلمات الكونية القدرية؛ لأنَّ الكلمات التي تُضاف إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تارة تُطلق ويُراد بها الكونية القدرية، وتارة تُطلق ويُراد بها الكلمات الشَّرعية، التي

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٩/ ٤٦٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٨).

هي وحي الله وتنزيله، والأقرب أنها الكونية القدرية، «فكلماته التامات هي التي كوَّن بها الأشياء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، ولا يخرج أحد عن القدر المقدور ولا يتجاوز ما خطَّ له في اللوح المسطور»[١].

قَوْلُهُ: (التَّامَّاتِ). أي: التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

قَوْلُهُ: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ). أي: من شرِّ كلِّ مخلوقٍ قام فيه شرٌّ، وهذا تعوذ جامع؛ لأنَّ التَّعوذات المأثورة عن النَّبي ﷺ منها تعوذات تفصيلية من شرورٍ معينة، ومنها التَّعوذ الجامع المتناول للشرور كلِّها كما في هذا الدُّعاء.

ما يُقال عند النوم وأخذ المضجع

(روى أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا»، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ». انفرد به البخاري[٢]).

• الشرح •

قَوْلُهُ: (**ما يقال عند النوم وأخذ المضجع**). أي: بعد أن يأوي إلى فراشه ويضطجع فيه، فإنه حينئذٍ يأتي بما يقال عند النوم، وهذا فيه افتقار العبد إلى ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ العبد إذا أغمض عينيه ونام، فإنه

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٥).

لا يدري ماذا يحصل حوله، فلو كان هناك عدو من شياطين الإنس أو الجنِّ، فإنه في حال نومه يكون هذا العدو متمكنًا منه؛ فإذا جاء بأذكار النوم دخل في هذا النوم مفوضًا أمره لله، مسلمًا نفسه لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طالبًا منه الحفظ والعون، متجهًا إلى ربِّه مستعينًا به جَلَّ وَعَلَا؛ فيكون في حصن حصين وحرز متين، ولا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله؛ فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله.

قَوْلُهُ: (**بِاسْمِكَ اللهُمَّ**). الباء هنا للاستعانة، أي: استعانة من العبد بربِّه وتفويض لأمره كلّه إليه جَلَّ وَعَلَا.

قَوْلُهُ: (**أَمُوتُ وَأَحْيَا**). أي: موتي وحياتي كل ذلك باسمك، وفي كلِّ ذلك ألتجئ إليك وحدكَ، ولا ألتجئ إلى أحدٍ سِواكَ يا الله، والمراد بالموت هنا: النوم، أي: أُدخل في النوم الذي هو موتة صغرى، يوضحه قوله بعده: «**أحيانا بعدما أماتنا**».

قَوْلُهُ: (**وَإذا اسْتَيْقَظَ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا**). أي: إذا قام من نومه في صحَّةٍ وعافيةٍ وسلامةٍ؛ حمد الله على هذه النِّعمة، أن أحياه بعد أن أماته، وقوله ﷺ: «**بَعْدَمَا أَمَاتَنَا**»، هذا دليل على أنَّ النوم يُعَدُّ موتة كما قال الله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، فيحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هذه النِّعمة، فكم من إنسانٍ أغمض عينيه على فراشه ولم ينهض منه وقبضت روحه فيه، فيذكر نعمة الله عليه بأن قام بصحَّةٍ وعافيةٍ.

قَوْلُهُ: (**وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**). لمَّا كان النوم شبيها بالموت، بل هو موتة صُغرى، فإنَّ القومة منه شبيهة بالنُّشور، الذي هو القيام من القبور، ولهذا الوجه في الشَّبه قال: «**وإليه النُّشور**»، ولهذا يأتي في أذكار المساء: «**وإليك المصير**»؛ لأنَّ الدُّخول في المساء ينتقل منه الإنسان

إلى النوم، فهذا شبيه بالمآل والمصير، فناسب في المساء أن يقول: «**وإليك المصير**». ◈

(وروى البَرَاءُ بنُ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ أَمَرَ رَجُلًا إذا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ أَنْ يَقُولَ: «اللهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مَاتَ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ». وروي: «بنبيك». متفق عليه[1]).

أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديث عظيم، فيما ينبغي أن يحرص المسلم على قوله إذا أوى إلى فراشه لينام، وهذا الدُّعاء الذي اشتمل عليه هذا الحديث دعاء جامع لمعانٍ عظيمة من الاستسلام والتَّفويض والتَّوكل على الله، والإيمان به وبكتبه وبرسله، ولهذا أخبر النَّبي ﷺ أنَّ مَن قاله ومات من ليلته، مات على الفطرة، وإذا لم يمت وكتب الله له حياة؛ أصاب خيرًا كثيرًا، كما جاء في بعض روايات الحديث.

والحديث مشتمل على معانٍ عظيمة جليلة، وقد اشتمل -كما في بعض رواياته- على بعض الآداب، التي يُستحب للمسلم أن يأتي بها إذا أوى إلى فراشه، حيث قال ﷺ: «**إذا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ**»[2]، فأرشد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى أدبين عظيمين من آداب النوم:

الأمر الأول: أن ينام المرء على طهارة، وهذه أكمل ما يكون في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١١)، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٥).

حال المسلم عندما ينام.

الأمر الثَّاني: أن ينام على شقِّه الأيمن، وهذه أكمل صفة للنوم، ثمَّ يأتي بهذه الدَّعوات وغيرها، ممَّا يُؤثر عن النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ**). فيه استسلام العبد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وإسلام أمره له جَلَّ وَعَلَا، وإقراره أنَّ أمره بتدبير الله وتسخيره، وبمشيئته وإذنه جَلَّ وَعَلَا. فـ «**أسلمت نفسي إليك**»: أي: مقرًّا بأني عبد من عبادك، وطوع تدبيرك وتسخيرك، لا حول لي ولا قوة إلَّا بكَ.

قَوْلُهُ: (**وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ**). هذا فيه إخلاص العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أي: مخلصًا لا أبتغي بتوجهي إلَّا وجهكَ، ومنه قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩ - ٢٠].

قَوْلُهُ: (**وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ**). أي: أسندته إلى حفظك، وهذا التجاء وتفويض إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (**وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ**). هذه كلمة توكل واعتماد على الله، ولكن ما الأمر المفوض إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا؟ يقول أهل العلم: إنَّ المفرد إذا أُضِيفَ فإنَّه يفيد العموم، فقوله: «**وَفَوَّضْتُ أَمْرِي**»، أي: فوضت جميع أُموري، لا أستثني شيئًا منها إليكَ يا الله، فهذه كلمة تفويض وتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُهُ: (**رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ**). أي: أقول ذلك جامعًا فيه بين الرَّغبة والرَّهبة، والرَّجاء والخوف، وهذه حال المسلم في كلِّ تعبداته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فالمسلم في أعماله بين الرَّجاء والخوف، والرَّغبة والرَّهبة.
الرَّغبة؛ أي: فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والطَّمع في نواله، والفوز برضاه.
والرهبة: هي الخوف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومِن سخطه، ومن أن يَرُدَّ العمل على العبد، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠- ٦١]، وجلة: أي خائفة أن لا تقبل أعمالهم منهم، ولهذا ينبغي أن يكون العبد في دعائه وفي كلِّ عباداتِه بين الرَّجاء والخوف، والرَّغبة والرَّهبة.

قَوْلُهُ: (**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**). فيه أنَّ العبد لا مفر له من الله إلَّا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلّ شيءٍ يخاف العبد منه يفر منه، إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ الخوف منه يوجب الفرار إليه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ** ﴾ [الذاريات: ٥٠]، فالعبد إذا خاف مِن ربِّه فرَّ إليه؛ لأنَّه لا ملجأ ولا مَنجا من الله إلَّا إليه، فملجأ العبد في كلِّ ما يؤمله ويرجوه، ومنجا العبد من كل ما يحاذره ويخشاه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قَوْلُهُ: (**آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ**). أي: القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه وحي الله وتنزيله جَلَّ وَعَلَا، آمنت به وبما اشتمل عليه من الهُدى والخير والإيمان والصَّلاح.

قَوْلُهُ: (**وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**). الذي جاء في الرواية هو قوله: «**وبنبيكَ الذي أرسلت**»، ولما رددهنَّ البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستذكرهنَّ، فقال: «**وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»، قال له النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا؛ وبنبيكَ الذي أرسلت**».

قَوْلُهُ: (**وبنبيكَ**). أي: محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، «**الذي أرسلت**»، أي: إلى الثّقلين، بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا -صلوات الله وسلامه وبركاته عليه-.

فاجتمع في قوله: (بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنبيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ). الإيمان بالوحي المنزل، والإيمان بالرَّسول المبعوث بهذا الوحي؛ لأنَّ حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ اقتضت في وحيه أن لا ينزل على كلِّ العبادِ، وإنَّما يصطفي منهم خيرهم وأفضلهم، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٥]، ثمَّ يبعثهم إلى النَّاس بوحيه، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

قَوْلُهُ: (فَإِنْ مَاتَ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ). أي: مَن قال ذلك، إنْ مات مِن ليلته تلك مات على الفطرة، وهذا يفيدنا أنَّ الإتيان بهذه الكلمات لا ينبغي أن يكون قولًا مجردًا باللِّسان؛ لأنَّ الفطرة أمر يُلامس قلب المرء؛ ولهذا فإنَّ مَن يقول هذه الدَّعوات ينبغي أن يقولها مستحضرًا المعنى الذي دلَّت عليه، مُحققًا ما دلَّت عليه مِن إيمانٍ وتوكلٍ وتوحيدٍ وتفويضٍ وإيمانٍ بالله وكتبه ورسله، فإذا قال ذلك عن فَهمٍ وإيمانٍ ومات من ليلتهِ؛ مات على الفطرة.

وممَّا يُستفاد من ذلك: أنَّ المرء ينبغي أن يواظب عليه كلَّ ليلةٍ، وأن يحرص على ذلك حتى يكون من أهل هذه الفطرة والموت عليها، وإن كتب الله له حياة فلم يمت مِن ليلته أصاب خيرًا، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث، قال: «**وَإِنْ أَصْبَحْتَ؛ أَصَبْتَ خَيْرًا**»[1]، فيكون أيضًا مِن فوائد هذا الدُّعاء العظيم أنه بركة عليك في يومك إذا أصبحت، فهو مِن أسباب البركة وأن تصيب في يومك خيرًا.

قوله: «**خيرًا**». جاءت نكرة في هذا السِّياق لتفيد العموم، وهي

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٠).

متناولة خير الدِّين والدُّنيا.

ومِن فوائد هذا الدُّعاء: أهمية التَّقيد بالدَّعوات المأثورة عن النَّبي ﷺ بألفاظها الواردة، فلا يغير في ألفاظها شيئًا ولا يزيد عليها شيئًا، ولا يجعل لفظًا مكان لفظ أو كلمة مكان كلمة، حتى وإن استحسن ذلك، بل يحرص على حفظها بألفاظها الواردة عن النَّبي الكريم ﷺ؛ فإنَّ البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما استذكر هذا الدُّعاء بين يدي النَّبي ﷺ قال سهوًا ونسيانًا: «وبرسولك الذي أرسلت»، فقال له النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لا، وبنبيك الذي أرسلت**»، فأفاد ذلك أهمية التَّقيد بالألفاظ المأثورة عن النَّبي ﷺ، حتى وإن استحسن المرء لفظًا، فليس له أن يبدل أو يُغير فيما جاء عن النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا أن يزيد عليه؛ لأنَّ الزِّيادة عليه نوع من الاستدراك على النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في دعواته المأثورة عنه، فينبغي تجنب ذلك وأن يحرص على دعوات النَّبي ﷺ كما وردت عنه؛ فإنَّ دعواته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمعت بين العصمة من الخطأ والكمال في المعاني، حيث تضمنت أكمل المطالب وأجل المقاصد وأنبلها على الإطلاق، وهذا كله مما يؤكد أهمية العناية بدعاء النَّبي ﷺ كما ورد عنه، دون أن يزاد فيه أو ينقص. ◈

(وروي عن عبدِ الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ أَمَرَ رَجُلًا إذا أَخَذَ مَضْجَعَهُ أن يقول: «اللهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَتَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللهُمَّ إني أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ؟ فَقَالَ: مِنْ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ، مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. انفرد به مسلم[1]).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٢).

• الشرح •

وهذا دعاء آخر مِن أدعية النوم، وقد جاءت أدعية النوم وأذكاره متنوعة، بل هي -كما أشار الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- كثيرة تبلغ نحوًا من أربعين[1]، فيأتي المسلم منها بما علمه وتيسر له؛ فهو باب تنافس وربح وغنيمة.

قَوْلُهُ: (اللهُمَّ خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا). أي: أوجدت نفسي من العدم، وخلقتني بعد أن لم أكن، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١- ٢].

قَوْلُهُ: (خَلَقْتَ نَفْسِي). إقرار مِن العبد بأنه مخلوق لله، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أوجده، وهو الذي خلقه، وهو الذي أمده بالعافية والصحة والقوة.

قَوْلُهُ: (وَأَنْتَ تَتَوَفَّاهَا). أي وفاتي بيدك.

قَوْلُهُ: (لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا). أي: أمر مماتي ومحياي بيدك وبقدرتك وطوع تدبيرك.

قَوْلُهُ: (إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا). ما سبق من دعاء هو وسيلة، وهذا هو المطلوب: الحفظ، «**فاحفظها**». أي: بما تحفظ به عبادك الصَّالحين.

قَوْلُهُ: (وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا). هذا ينبني على استشعار من العبد حينما يأوي إلى فراشه لينام: أنه في هذه النومة لا يخلو من حالتين: إما أن تقبض روحه في منامه، أو أن يفسح الله له في الأجل

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٠٤).

فينهض من منامه، فيستشعر العبد الحالتين، فيدعو الله بدعوة تناسب الحالتين؛ إن فسحَ في الأجل أن يحفظها، وإن قبضها في الفراش في هذه النومة أن يغفر لها.

قَوْلُهُ: (**اللهُمَّ إني أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ**). سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ العافية من أعظم المطالب وأجلها؛ فقد جاء في الحديث أنَّ العباس عم النَّبي ﷺ أتى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: علِّمْنِي شَيْئًا أَدْعُو بِهِ، فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَلِ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ**» قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَدْعُو بِهِ، فَقَالَ: «**يَا عَبَّاسُ! يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»[1].

أعاد عليه الدَّعوة نفسها، فسؤال الله العافية هذا من أعظم المطالب وأجلها، وإذا أوتي العبد العافية في دينه ودنياه وأخراه؛ فاز الفوز العظيم، وتحققت له النَّجاة بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(**فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ**) أي: قال لابن عمر: (**أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ عُمَرَ؟**)، أي: هل هذا الدُّعاء سمعته من أبيك عمر؟ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مِن خيرٍ من عمر، مِن رسول الله ﷺ**».

(وروى أنسُ بنُ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ إذا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ». انفرد به مسلم[2]).

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧٨٣)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٥).

• الشرح •

في هذا الحديث ذكر نعمة الله على عبده وحمده جَلَّوَعَلَا عليها.

«**الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا**» بأن يسر لنا حاجتنا مِن الطعام الطيب والشراب الهنيء، «**وَكَفَانَا**» دفَعَ عَنَّا شر كل ذي شر، «**وَآوَانَا**» بالمسكن الذي يقينا الحر والبرد، ونحفظ فيه متاعنا، ونحجب به أهلنا وعيالنا، «**فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ**»، أي: كم من الخلق مَن لم تحصل له هذه الكفاية وهذا الإيواء، وفي هذا إدراك عظم النعمة الموجب لحمد المنعم.

وينبغي أن نعلم في ضوء هذا الحديث وما قبله، أن المرء إذا أوى إلى فراشه لينام، فعليه أن ينظر نظرين:

النظر الأول: نظرٌ إلى ما مر مِن وقته، ومضى من أيامه في صحة وعافية وطعام وشراب وغذاء ومأوى وفراش وغير ذلك، فيحمد الله، لا ينام إلا وهو حامد لله، طعِم وشرِب وعنده المسكن وعنده الملبس، يذكر هذه النعم فيحمد الله عليها، فإن كنت أنام شبعًا، فغيري قد ينام جائعًا طاويًا، وإن كنت أنام في مأوى مرتاحا فيه وفي فراش طيب، فغيري قد لا يجد فراشا يأوي إليه أو مكانًا يرتاح فيه، وهكذا يعدد النعم ويذكرها ويحمد الله عليها؛ والحمد حافظ وجالب، حافظ للنعمة الموجودة، وجالب للنعمة المفقودة، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وهذا الحمد عند النوم من موجبات ثبات هذه النعمة وبقائها وزيادتها ونمائها، فينبغي للعبد أن لا يفوت هذا الحمد العظيم عندما يأوي إلى فراشه لينام.

النَّظر الثَّاني: نظرٌ إلى المستقبل، كما في حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ففيه نظر إلى المستقبل، فيذكِّر نفسه: ماذا سيكون حالي في هذا النوم؟ فهناك احتمال أن تقبض روحي، واحتمال أن يفسح لي في الأجل، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٤٢]، فهذه أحوال أرواح العباد في النوم؛ إمَّا أن تمسك روح العبد فيصبح بين يدي أهله ميتًا على فراشه، وهذا لا يختص بالكبار، بل يشمل الكبار والصغار، وإما أن يفسح له في الأجل.

فيذكر العبد هذين الحالين قبل أن ينام، فيدعو الله بدعاء يناسب الحالين: حال القبض وحال الإرسال، فيقول: «**إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا**».

والحاصل: أنَّ الدعواتِ المأثورةَ عن النَّبي الكريم عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فيما يتعلق بالنوم، منها ذكر لله وثناء وتمجيد، ومنها إقرار بأصول الإيمان وعقائد الدين؛ بحيث إن مات أثناء نومه فإنه يموت على الفطرة، ومنها ذكر لنعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العبد بالمطعم والمشرب والمسكن فيما مضى من وقته، فيحمد الله على هذه النعم، ومنها دعوات تتعلق بنظرة الإنسان لحاله في هذه النومة، هل تقبض فيها روحه أو ترسل؛ فيدعو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إن قبضت بأن يرحمه الله ويغفر له، وإن أرسلت روحه أن يحفظه بما يحفظ به عباده الصَّالحين. ولا يزال العبد على فراشه متنقلًا مِن ذكر إلى آخر ومن دعاء إلى دعاء، إلى أن يدخل في النوم على خير حال وأطيب نوم، مصحوبًا بحفظ الله وتوفيقه. ◈

فصل في الصلاة على النَّبي ﷺ

ختم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ كتابه «**كفاية المتعبد**» ببيان فضائل الصَّلاة والسَّلام على النَّبي المختار، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذا حقّ من حقوقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أُمته، ويتأكد هذا الحق في مواطن منها: عند ذكره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبعد الأذان، وفي آخر التشهد، وفي خطبة الجمعة، ويُستحب الإكثار من الصَّلاة والسَّلام عليه في كلِّ اللَّيالي والأيام، إلَّا أنه يتأكد في ليلة الجمعة ويومها، لقوله ﷺ: «**أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة؛ فمن صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرًا**»[١].

(روى أبو هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً؛ صَلَّى الله عَلَيْهِ عَشْرًا». انفرد به مسلم[٢].

والصَّلاة من الله: الرَّحمةُ، ومن الملائكةِ والنَّبي عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: استغفارٌ ودعاءٌ. قاله الهَرَوي).

• الشرح •

هذا الحديث فيه فضل الصَّلاة على النَّبي ﷺ، وأنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فمَن صلَّى على النَّبي ﷺ،

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٥٩٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٨).

جـازاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بـأن صلَّى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه عشرًا؛ جزاءً من جنس العمل، وتضعيفًا في الثَّواب فالحسنة بعشر أمثالها.

قَوْلُهُ: (والصَّلاة من الله الرَّحمة). هكذا فسَّر الصَّلاة من الله على نبيه ﷺ بأنَّها الرَّحمة، لكن الحقّ أنَّ الصَّلاة غير الرَّحمة، فالصَّلاة لها معنى، والرَّحمة لها معنى، والله غاير بين الصَّلاة والرَّحمة كما في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

ولهذا فإنَّ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم: «جلاء الأفهام في الصَّلاة والسَّلام على خير الأنام»، وهو من أحسن الكتب المصنفة في الصَّلاة والسَّلام على النَّبي الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ تحقيقًا وتدقيقًا لما ذكر قول مَن قال: إنَّ صلاة الله على نبيه هي الرحمة، انتقد ذلك من وجوه بلغت ما يقرب من العشرة، وقال: إن الصلاة هي التعظيم للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والثناء عليه في الملأ الأعلى تشريفًا له، وتعلية لمقامه، وتعظيما لشأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتمييزًا له عن سائر الخلق[(١)].

(وروى عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنتُ أُصَلّي والنَّبي ﷺ وأبو بكر وعمر معه، فلمَّا جلستُ بدأتُ بالثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم الصلاةِ على النَّبي ﷺ ثم دعوتُ لنفسي، فقال النَّبي ﷺ: «سَلْ تُعْطه، سَلْ تُعْطه» أخرجه التِّرمذي، وابن ماجه، وقال التِّرمذي: حسن صحيح[(٢)]).

---

(١) انظر: جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، لابن القيم (ص: ١٥٥- ١٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٣)، وابن ماجه (٤١٩٤)، وقال الألباني: حسن صحيح.

• الشرح •

قَوْلُهُ: (كُنْتُ أُصَلِّي). يقصد الصَّلاة ذات الرُّكوع والسُّجود؛ لأنَّ الصَّلاة تُطلق ويُراد بها ذات الرُّكوع والسُّجود، وتُطلق ويُراد بها مُطلق الدُّعاء، فقوله: «**كُنْتُ أُصَلِّي**»، أي: الصَّلاة ذات الركوع والسجود.

قَوْلُهُ: (فَلَمَّا جَلَسْتُ). أي: جلست للتشهد في آخر الصلاة.

قَوْلُهُ: (بَدَأتُ بالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى). أي: بدأ يقرأ: التحيات لله والصلوات والطيبات.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ). أي: بالصلاة الإبراهيمية المعروفة.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ دَعَوْتُ لِنَفْسِي). أي: جاء ذلك على هذا النَّحو في الترتيب، أولًا: ثناء على الله، ثمَّ صلاة وسلام على النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثمَّ دعاء لنفسه.

وقد جاء في حديث آخر لابن مسعود أيضًا أن النَّبي ﷺ وسلم قال: «**ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الدُّعَاءِ أَعْجَبَهُ إِلَيْهِ، فَيَدْعُو**»[1]؛ ولهذا ينبغي أن يعلم أن هذا الموطن من الصلاة موطن عظيم في قبول الدعاء وإجابته؛ لأنك في صلاتك حمدت الله ومجَّدته، وخضعت له وركعت وسجدت، ثمَّ جلست في آخر صلاتك جلوس المتذلِّل للربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، معظمًا لله عَزَّوَجَلَّ بما يليق بجلاله وكماله، مثنيًا عليه بما هو أهله، مصليًا ومسلمًا على رسوله ﷺ، فتتحرى بعد ذلك من الدُّعاء ما شئت، فإنَّ الدُّعاء في هذا الموطن مستجاب، مع أن كثيرًا من الناس لا يتحرى الدعاء

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

في هذا الموطن، وكثير منهم يقتصر على «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[1]، بينما هذا الموطن من المواطن التي ينبغي على العبد أن يتحرى فيها الدُّعاء، وتأمل قول النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لابن مسعود: «**سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ**»، أي: أنَّ الدُّعاء مستجاب في هذا الموطن وعلى هذه الصفة. ◈

(وقال عبدُ الرحمن بْنُ أَبِي لَيْلَى، لقيتُ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ، فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً، خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: قَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فقالَ: «قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». متفق عليه[2]**.**

وروى أبو مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي مَجْلِسِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُولُوا اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ». انفرد به مسلم[3]**.**

---

(١) أخرجه مسلم (٥٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).
(٣) أخرجه مسلم (٤٠٥).

وأبو مسعودٍ: اسمه عُقْبَة بن عَمرو[١]، وقوله: كما قد علمْتُم: يُروى بفتح العين وتخفيف اللام، وَبضَمِّ العين وتشديد اللام، ويعني بذلك في التحيات في قوله: «السلام عليكَ أيُّها النَّبي ورحمةُ الله...» إلى آخره، وقيل: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وروى أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ». متفق عليه[٢].

وأبو حُمَيد السَّاعِدي، اسمُه المُنذر، وقيل: عبد الرحمن بن سعْد بن المنذر، وقيل: غير ذلك.

وروى أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! هَذَا السَّلاَمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي؟ قَالَ: «قُولُوا: اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ». انفرد به البخاري[٣].

تمت بحمد الله تعالى وحُسنِ توفيقه).

ختم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفصل بأحاديث مشتملة على صيغٍ للصلاة على النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبأي منها أخذ المسلم كفاه؛ لأنها كلها صحيحة ثابتة، فهي إما في الصحيحين أو في أحدهما، فهذه الصيغ هي أصح الصيغ المأثورة عن النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقد نلحظ في

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ١٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٨).

هذا الباب تكرر السؤال من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى النَّبي ﷺ عن كيفية الصلاة عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مع ما عندهم من قدرة على صياغة ألفاظ متنوعة في الصلاة عليه، لكنهم لم يفعلوا وسألوه ﷺ وعلمهم، وكانوا يواظبون على هذه الصيغ التي تعلموها منه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وإلا ما فائدة السؤال؟! فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوه وعلمهم، والتزموا الشيء الذي علمهم إياه، ثم لما جاء من بعدهم من الناس بدأ التغير، وبدأت تدخل على الناس الأهواء، وأصبح بعضهم يتكلف صيغًا للصلاة على النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وانشغل بها العوام والجهال، وضيعوا المأثور عن النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وعلى كلٍّ فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قالوا: «**كيف نصلي عليك؟**»، فعلمهم ﷺ، واقتصروا على هذا الذي علمهم إياه، والواجب على الأمة أن يأتسوا بهم، وأن يلزموا نهجهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل إن الصحابة يعدون هذا من أجمل التُّحف وأحسنها، كما جاء في حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيت كعب بن عُجرَة فقال: «ألا أهدي لك هدية»، وما أجملها من هدية! وما أجملها من تحفة!

قال الحافظ ابن حجر: «واستدل بتعليمه ﷺ لأصحابه الكيفية بعد سؤالهم عنها بأنها أفضل كيفيات الصلاة عليه؛ لأنه لا يختار لنفسه إلَّا الأشرف الأفضل، ويترتب على ذلك لو حلف أن يصلي عليه أفضل الصلاة فطريق البر أن يأتي بذلك»(٤).

قَوْلُهُ: (**خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: قَدْ عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ**). أي: بتعليم النَّبي ﷺ لهم، قال: «**قُولُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا**

(٤) فتح الباري (١١/ ١٦٦).

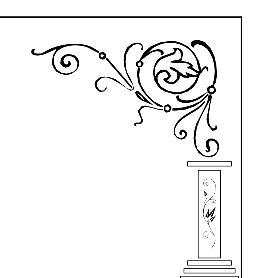
النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»[١]؛ ولهذا في الحديث الذي بعده قال لهم النَّبي ﷺ: «**وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ**».

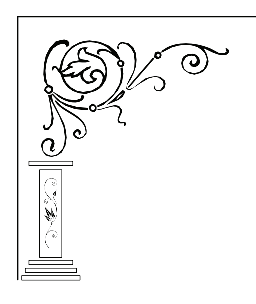
ثم إنَّ هذه الصيغ التي أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلها صحيحة، وهي إما في الصحيحين أو في أحدهما، وبأيٍّ أخذ المسلم كفاه، وهي مشتملة على تعليم النبي ﷺ أصحابه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الصيغةَ التي يصلون بها على النبي الكريم ﷺ، ولعل أكمل هذه الصيغ الصيغة الأولى التي بدأ بها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد جاء عند البخاري في رواية لهذا الحديث بلفظ: «**اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[٢]؛ لأنه قد جمع فيها بين النبي ﷺ وآله وبين إبراهيم ﷺ وآله في الدعاء بالصلاة والدعاء بالبركة، ولتكن هي مسك الختام لهذا التعليق، وبالله وحده التوفيق، والحمد لله رب العالمين. ◈

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٠).





الموضوعات والمحتويات

مقدمة ٥

كفاية المتعبد وتحفة المتزهد ٩

الباب الأول في الصلاة ١٥

ما جاء في فضل الصلاة ١٦

ما جاء في فضل الصلاة لأول وقتها ٣٤

ما جاء في فضل الجماعة ٣٧

ما جاء في ركعتي الفجر من الفضل ٣٩

ما جاء في فضل المحافظة على الفجر والعصر ٤١

ما جاء في صلاة الضحى ٤٤

ما جاء في عدد صلاة الضحى ٤٩

ما جاء في الصلاةعند ارتفاع الضحى واستحرار الشمس ٥٠

ما جاء في الصلاة قبل الظهر وبعدها ٥٣

ما جاء فيمن صلى في يوم ثنتي عشرة ركعة ٥٤

جامع ما جاء في صلاة الليل ٥٦

دعاء الاستخارة ٦٥

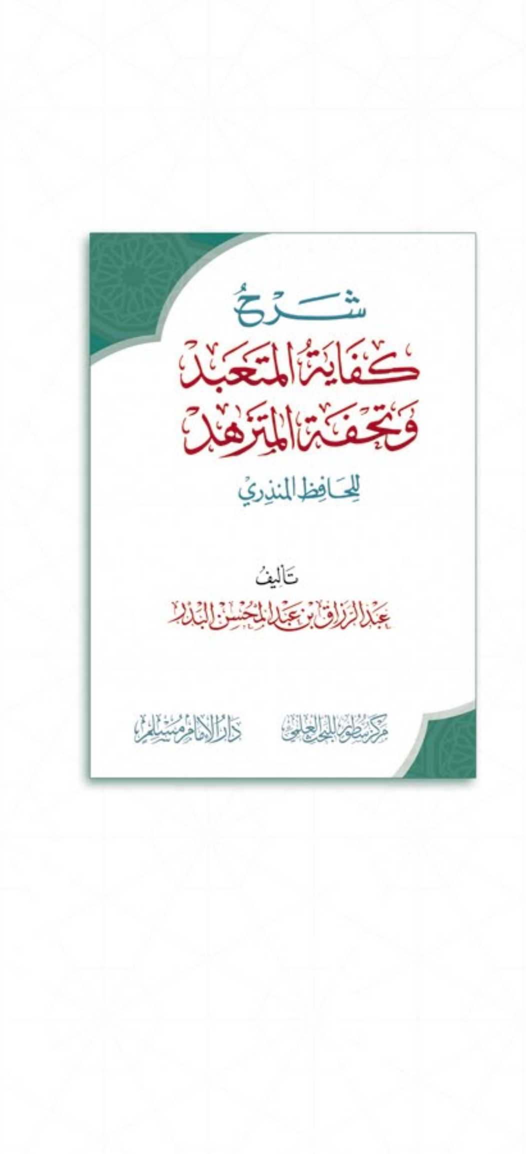
الباب الثاني في الصيام ٧٣

[فضل الصيام] ٧٣

ما جاء في صوم المحرم ٨٢
ما جاء في صيام عاشوراء ٨٣
ما جاء في صيام شعبان ٨٥
ما جاء في صيام رمضان ٨٩
ما جاء في صيام ستة أيام من شوال ٩١
ما جاء في العمل في عشر ذي الحجة ٩٢
ما جاء في صيام يوم عرفة وثلاثة أيام من كل شهر ويوم الاثنين ٩٤
الباب الثالث في الصدقة ١٠٣
[فضل الصدقة] ١٠٣
الباب الرابع في الدُّعاء والذِّكْر ١٤٣
فضل الدُّعاء والذِّكر ١٤٣
ما يُقال عند القيام من النوم ١٤٨
ما يُقال عند القيام من النوم ١٥٢
ما يُقال عند دخول الخلاء ١٥٦
ما يُقال بعد الفراغ من الوضوء ١٥٨
ما يقول عند الخروج إلى الصَّلاة ١٦٢
ما يُقال عند الصَّباح ١٦٨
ما يُقال عند سماع الأذان ١٧٧
ما يُقال بعد التَّسليم من الصَّلاة ١٨٢
ما يُسبح به في الأيام وفضل التَّسبيح ١٩٠
ما يُقال عند القيام من المجلس ١٩٩
ما يُقال عند المساء ٢٠٢

ما يُقال عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٩
فصل في الصلاة على النَّبي ﷺ ٢٢٠

❊ ❊ ❊


شرح
كفاية المتعبد وتحفة المتزهد
للحافظ المنذري
تأليف
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
مركز سطور للبحث العلمي
دار الإمام مسلم